محمد الاحسايني

الـمـغـتـربـو
ن

رواية

الطبعة الثالثة
الطبعة الثانية : وزارة الثقافة والإعلام
بغداد، العراق، 1998.
الطبعة الأولى : دار النشر المغربية،
البيضاء، المغرب1974.

1

على مقربة من نهاية **جبل الكست** الممتد شرقاً إلى الشمال الغربي، وعلى هضـاب سفحه، تقع **أنامر**، القرية ذات البنـاءات الحمراء، المكللة ببياض تيجان قلاعها ذات الشـــرفات المطلة على مـــروج محصـــورة جبلين : جبل **الكست** العـالي، وجبـال **إيغـالن** كما يســميه أهل البلـــدة. وتغطى غابة كثيفة الزيتون، والنخيل، واللـوز، وآركـان، وغيرها جانبـاً هامـاً من سـفح الجبل حـتى **آزاغـار-** السـهل- الذي يخترقه **وادي أملن**؛ وهو يشق طريقه نحو المصب في **المحيط الأطلسي**، وقد ينضب ماؤه أحيانا قبل يونيه.

وفي منحــدر **أنيل**، أخـذت سـيارة طريقها، مارة في الواحة، مكابدة الطريق في عناء، فأحدث أنينها صـوتاً موسـيقياً يـوحي بقـوة وعظمة الاخـــتراع، تحت ظلال أشـــجار ومياه تنصب شلالات في الجداول؛ النسوة اللائي يرتـــدن العين قد أدرن ظهــورهن عاكفـــات ملء جررهن. في حين، كانت سيارة قد انعطفت يساراً تصعد آخر منحدر من المنحدرات التي كان

عليها أن تقطعها قبل الوصول إلى **أنامر**.
النسوة في همسات وتساؤلات :
- ترى من الغريب أو المغترب الذي وصل ؟"
تجيبها أخرى :
- إنه **عبد المالك**، قد وصل "بسلامة" إلى بلدته .
- وصل قبل حلول الآخرين- قالت ثالثة :
وأخيراً، توقفت السيارة أمام **أنامر**.
كانت البركة ممتلئة حتى الثمالة، تنعكس على صفحتها الدور والأشجار، وعلى الأمامية، ضفادع لا تلبث أن تنغمس فيها سابحة، واحدة تلو أخرى، على إثر قدوم إحدى النسوة ترد ساحتها.
نزل **عبد المالك** من السيارة، عليها نظرة، ثم قال في نفسه : " أي روعة هذه ! أين **أبو عبادة** يصفها للعالمين وصفاً ؟ ! من حقه أن يعود إلى هذه القرية منبع طفولته، ومسقط رأسه، بدون تكلف، وبتلقائية ؟ بالحيوية تتدفق بين جوانحه.

همسات الطيور، وتغاريد البلابل، أسلحة نورانية تشق حجــاب الصــمت بــدء كل فتتجدد الحياة في كل زاوية من زوايا القرية.

وفي سـرعة، تجمع حوله صـبيان القريـة، سلموا عليه واحداً واحداً، بينما كان سائق سـيارة الأجــرة، منهمكا في إنــزال أمتعتــه، لينقــذه **المالك** بدوره، ورقة مالية، تسلمها منه راضياً.

وعنـــدما هم بالمضي سُـــمعَتْ فرنسية، داخل السيارة تقول:

أهذه هي **أنامر** ؟

أجاب **عبد المالك** تلقائياً :

- أجل.

- يا لروعتها !!

شعر ببعض الضيق، لكنه أجـاب بعد قصير :

- طبعاً، إنها جميلة.

- أتمكث هنا إلى الغد ؟

ضحك :

- بل أمكث-هنا- شهوراً، فهذا هو مسـقط رأسي ! ثم أغلقت الباب؛ وهي تقول في امتنان :

- إلى اللقاء !

- إلى اللقاء !

عادت السيارة أدراجها نحو **تافراوت**.

إذن؛ فلابد أن يعرف أهل القبيلة كلهم أن **عبد المالك** قد وصل، وصل فارغاً شيء، إلا ما تحويه حقيبته من الكتب والشهادات المدرسية، وصل قبل حلول عطلة الصيف، هارباً من مشاكل المدن، بعد إخفاقه في بالجامعة، نتيجة فقر والده الذي لم يبق له أي ضيعة يرهنها : لم يعد أشجار الزيتون، وعشرات من أشجار اللوز في جبل **الكست** الأصم. " آه ! لو كانت جيوبهم تستطيع الوصول إليها، إلى " **إيرضمان**" المدرجات الجبلية"- لما بقي منها شيء. أي هذا الذي لصق به ؟ فمهما حاول أن يبدو قويا، يداري القوم بفلسفته ومنطقه، إلا وبرزت حقيقة حاله ومظهره.

هل يخفى الجرح ؟

هاهو قد وصل إلى بلدته، وصل إلى ذات تقاليد عريقة في القدم، طال عهده بها طفولته، لم يتغير منها شيء منذ العصيان المدني ضد الضابط الفرنسي **تافراوت**، لم يتغير منها شيء، منذ أن حاصرتها قوات " لاليجو"، واعتقلت رجالها : شيوخاً، ورجالاً، وشباناً، واستخدمتهم في التعسفي والسخرة. السبب، أنهم قاوموا، زرعوا قنابل، أحرقوا سيارة " **القبطان**".

لقد أتى به والده **فاتح**، إلى **الدار البيضاء** من **أنامر**، ليتعلم في مدارس المدينـة، وكـانت المـدارس يومـذاك، غـير موجـودة "الدواوير"، أيام **الحماية**.

وسرعان ما نبه في دراسته، نال الشهادة الابتدائية في **مدارس أبناء أعيان المسلمين**، ثم حـدث لأبيه عـارض، فبـاع متجـره، وتركه كنف زوج عمتـه، ليتـابع دراسـاته في **المدارس الحرة**، لكن العائلة غارت منه بعد أن حصل على الشـهادة الثانويـة، افـترق عنهم، واكـترى لنفسه شقة في شارع فوكو، يستغلها منذ ثلاث سـنوات، يستعين على مصـاعب الحيـاة بأربعة آلاف ريـال، يتلقاها من والـده **بأنـامر** في انتظـام، رأس شهر.

وهاهو قد عاد إلى مسـقط رأسـه، بعد أخفق في الالتحـــاق بالجامعـــة، نتيجة وعـــوزه، ولأنه لم يتلق بانتظـــام، المبلغ آلاف ريال.

حمل حقيبتـه، وسـار يصـعد المنحـدر بيته، بينما كان أنين محرك " سيارة المسافرين" لا يـــزال يطن في أذنيـــه، بعد رحلة دامت عشرة ساعة متواصلة.

لم تمض بعـــد، أربع وعشـــرون حينما قطع الحارس جزءاً من تذكرته، فانطلق

صوب الحافلة المتجهة إلى **أكادير**. كان آخر مسافر يصعد إلى الحافلة، وكان عليه أن أي شيء يتوقعه مسافر يغيب في طريق يبدو له كأنه لا نهائي، وأحياناً حلزونياً، عندما الحافلة إلى الهضاب والجبال.

استوى على المقعد الـ 12 المخصص له.

كانت ساعته تشير إلى السابعة عشرة وخمس عشرة دقيقة. بجواره على اليمين، رجل ضخم، يغط في نوم ثقيل منذ أن انطلقت الحافلة ...

بعد قليل من ذلك، صعد أحد **وكالة السفر**، مصحوباً بلائحة المسافرين، أخذ في الإحصاء والتثبت من صحة التذاكر، واحدة واحدة، ثم ناوله السائق أوراقاً لينزل الحافلة، فيصفق وراءه الباب بعنف، آمرا السائق بالانطلاق !

- " أون آفان" !"

... وهمهم محرك الحافلة، ثم هدر هديراً، ارتجت له المقاعد واهتزت.

تحركت الحافلة، ثم انطلقت شوارع المدينة.

وفي أحضان المغيب، ارتمى الشمس، تبتلعه آفاق المحيط الأطلسي. السماء محمرة الوجنات، موشاة زرقتها بطروز بيضاء، من سحائب أبريل 1959.

آفاق المدينة تغبق خمرة الربيع !

وفي منتهى شـــــــــارع انتصبت عمارات شواهق ينطحن البقية الباقية من أشعة الأصيل !

كـــان ينظر من نافـــذة الحافلـــة، نظـرات أخـيرة على مدينة شـهدت مرتع شـبابه، قبل أن يغادرها. لا يريد أن يعـرف كيف جـاء مســكوناً بــأحلام أطلســية، وبقزحية الصــخور، بصـوف الأطلس، وبإيقاعاتـه. كيف تبـدد كل بين هذه الشوارع، وتلك الأزقة، يحلم تارة، ويشقى تارة أخـرى. رأى منظر العمـال يعـودون إلى مـآويهم، بعد مضي نهـار ملـؤه الكد والكـدح، المـارة الـذاهبين الآئـبين، شـاهد طفلاً يجثو ركبتيه يلمع حذاء أحد زبناء مقهى من مئات المقـــاهي المنتشـــرة في المدينـــة، جماعة فتيـات يســرن في دلال. وعند مفـترق الطـرق، شيخ مقـوس الظهـر، يعـبر مقطع الطريـق. تنهد يغمغم :

- " العيش بعدكم عدم" !

هكـــذا تـــذوب كل تلك العناصر الشوارع، أنوارُها، كأنها رقم هائل، يضرب أخيراً في صفر. الناس والأشياء، أرقام، أرقام لا غير !

أخذت عوالم المدينة تختفي شيئاً فشـيئاً، بينما كـــانت الحافلة في طريقها نحو **الجديـــدة**

آه ! آه يا **بريجة** ! يا **مازاغان** ! يا خصلة شعر منسدلةً على جيد لؤلـؤي ! قـدٌّ يميس الســاحل، يضــرب لقــاء مع النســيم برتغالية أنهكها المحو، وضَعة الزمان !

مـــاهي الآفة ؟ المحـــو، أو الحجر ؟ الموت أو الحياة؟

الحكم لم يصدره بعد، على العالم.

إنه غـارق في الســؤال والاســتقراءات المهم أن يعـرف مـتى يخــرج، ومـتى مناخات متباينة: " العيش بعدكم عدم" !

أمــارات الليل تغشى الأبصــار، والطريق صــوب الجنــوب، لســان طويــل، طويل الحافلة طياً. ما الفائدة ؟ لقد ضيع فرصة سانحة في هذه المدينــة، أو تلــك، كـان يحلم **بفينوس،** يحلم بها آتية من عـالم بعيـد، تهمس إليه الشـعر، والمـرح الإلهي، تمد إليه يـداً مرمريـة، تحيله كــائن قدسي ينسى المــوت، والحيــاة الفانيــة، فيذوق من نكهة الخلد، ينعم بعرائس البحر.

إلا أنه أضاع كل شيء، كل شيء. لا يدري كيف أضاعه.

اسـتغرق السـفر أكـثر من ثلـثي الليـل، صوب **تزنيت**، موطن الجمال السوسـي، بأغانيها وقلاعها، بآهاتها وحسراتها، بحليها الفضية. ولهــذا النـــوع من الحلي جمالية خاصة عند النســاء

سوس. أما الحلي الذهبية، فإنها تجعل المرأة تبدو كجارية.

رائحة النعناع تهب على المدينة مصـحوبة بنسيم الصحراء، فتحيلها إلى ألطاف إلهية.

أين يبتـدئ إقليم **سـوس**؟ لا أحد يعطيك الجواب الصحيح والنهائي : الخرائط؟ دعها جانباً.

وادي **درعة** ؟ ربمـا. إقليم **تـارودانت مراكش**؟

سوس، هي اللابـدء، واللانهاية : الأزل. فشلت كل الحسابات والافتراضات.

كـــان قد استســـلم لغفـــوة مع الظلمات، لم يستيقظ إلا مـرتين أو ثلاثـاً : الأولى **بأكادير**، والثانية، لم يتذكرها من شـدة الإرهـاق، والثالثة في موطن الرباب، **تـيزنيت**، حيث الوصول، وليس نهايته !

نزل مع الركاب، يحمل حقيبته. بدا غريبـاً وسط فلاة. ســـــــأل عن **تافراوت**، فدله عليه أحد الغلمان. الإنسان يحار في هذه المدينة، يتردد في مغادرتها نحو رأسه، فكأنها آخر مدينة تحاول أسره، والحفاظ به في رياض، تحت حراسة مشـددة من الفتنـة هناك، كانت العيون تتحدث، الأجواء تكلمك؛ وأنت ترجو تقبيل العتبات، قبل تقبيل الراحات.

أخيراً؛ وقد أحس أن كل شيء ينفلت منه في معــرض البهــاء، ارتمى في الســيارة، السـائق بـالانطلاق نحو **أنـامر**، هز هـذا حاجبيه كأنما لا يريد أن يعرف، ثم قال بعد تردد :

- أين تقع **أنامر** هذه ؟
- في **المريخ**.

تصنع السائق جدًّا على جهله :

- أين يقع **المريخ** ؟
- يا أخي إنها من قرى **تافراوت**.
- "هان"... طيب !

وأضاف محذراً :

- الأجرة خمسة آلاف فرنك
- ما عليك إلا أن تنطلق.

أخذت السيارة في التحرك، ثم ما لبث أن استوقفتهما شابة أوروبية، قالت بلسان فرنسي :

- هل يمكن لي أن التاكسي ؟

نظر إليه السائق، كأنه يريد أن يستعين به للرد عليها. فهم سر نظرته، وسرعان ما أجابها:

- طبعـــــــاً، نحن الآن **تافراوت**.
- طيب، من فضـــــلكما، إني أقصدها.

فتح السائق الباب الخلفي، فصعدت، لتسمع **عبد المالك** يرحب بها :

- تفضلي آنسة.

تعرف عليها، علم أن اسمها أستاذة بكوليج في **الدار البيضاء**، خصيصاً لدراسة تقاليد القرويين في الجنوب.

اسم عابر، مر كغيره من الأسماء التي تزور قرى الجنوب، التي هي محط دراسات الأوروبيين منذ أكثر من ثلاثة قرون.

ماهي إلا ثوان، حتى كان في دهليز والده. دق الباب، ثم سمع صوتاً يعرفه جيداً. وما انفتح الباب، حتى وجد نفسه، أمام والدته وجهاً لوجه. اندفع يسلم عليها، فسبقته السيدة عناقه وتقبيله، هتفت به: " أهذا أنت يا كبداه؟ ! ". قبل أن يجيب، توالى سؤالها من شدة الفرح، حتى اغرورقت عيناها : " كيف حالك يا بني تذكر فشله في الالتحاق بالجامعة، ومصاعبه المالية، فاضطر إلى الإجابة تهرباً المشاكل : " بخير".

قادته إلى الطابق الثاني ممسكة بحقيبته تحْمِلُها، فأخذها منها إشفاقاً.

كانت الدار عبارة عن بناية بربرية بسيطة مبنية باللبن الأحمر القاني، والحجارة الصلبة البلقاء الناصعة البياض، لم تنل منها السنون؛

إن كل ما طرأ عليها، مجرد تخضيب أحدثه نزول السوائل والغبار.

تتألف الدار- التي تبدو كقلعة صغيرة- من حظيرة الدواب، يحيط بها سور غير مرتفع، وحظيرة البقرة الداخلية.

تبع والدته، صعداً إلى الطابق الأول الذي يشتمل على مطبخ بربري تحيط به تستعمل مخازن للمؤن، والملابس، وغرفة خاصة للرحى. وعندما شارفا الطابق الثاني، سمع صوتاً رقيقاً يسائل :

- من الطارق يا أماه ؟

قالت السيدة **ماماس** بصوت ملؤه الحبور:

- **زينة** ! هاهو أخوك **عبد المالك** والحمد لله !

...وانسابت فتاة من غرفة الضيوف المؤثثة على الطريقة الأهلية، تمايلت كالغصن؛ وهي سائرة إلى القادم الجديد تتلقاه.

كانت قد تخطت الخامسة عشرة، وجه سني، تعلوه مسحة من جمال قروي، أسمى مظاهره، سذاجة تعبر بها عيناها، وصبر يرتسم كظل زائل، على حافتي شفتيها. أما الثوب ترتديه؛ فعبارة عن فستان سوسي، وشال

مزركش الألوان قزحي، لحفت به نصفها الأعلى، فأضفى على الجسد الأهيف روعة فائقة.

والسر في جمال المخلوقات، خفي دائماً عن أنظار الفلاسفة والباحثين؛ فهو ضالة الفنـان، كالحكمة بالنسـبة لكل مـؤمن ينشـدها. طالما حدثتها والـدتها عن أخيها **عبد المالك** هـذا، آماله العريضـة، وبنيته القويـة، فهو الساعدين، عريض المنكـبين، ابـرز ما في وجهـه، عينان متقدتان، ينبع منهما جمال فيـاض. شـعرت برغبة في القرب منه مدفوعة بكثير من الاعتزاز؛ وقد تذكرت قولها لأحد شبان " العآمت"[1] يوماً :

- لو كان أخي حاضراً لأدبك !

فهو بجانبهـا، حـامي الحمى، للأسرة ذكر سواه !

واقترب الأخـوان من بعضـهما فتعانقا حرارة.

وبتـأثر، فتح حقيبة ملابسـه، فستاناً وجدياً اشتراه من **البيضاء** مع قلادة من الجواهر الشعبية. قال :

1 - "العآمت" : كلمة تطلق على الشباب، تعادلها كلمة " الفتـوة"، أو " الأخـوان"، ولعل الكلمة مـأخوذة العربيـة، إما بمعـنى " العامـة" ضد "الخاصـة"، وهـذا بعيـد، وإما بمعـنى العم، دلالة والمراهقة، والرجولة، من أطوار حياة الإنسان.

-هذا الفستان، والقلادة لك ! والملحف الأســود للوالــدة. أما الجلابة فهي من الوالد !

وفي فضــول قــالت؛ وقد شــعرت التقــارب بعد أن لمحت صــندوقا كرويــاً داخل الحقيبة :

- وهذا لمن ؟

قهقه فأجاب :

- لأخيك **عبد المالك**، يفعل به ما يشاء !

ثم ربت على كتفهــا. علت ضــحكاتهم جميعا وقد أشبعتاه، ثناء ودعاء بالخير. أخذ اليأس يختفي، أو يتوارى وراء فرح طفولي.

لا يريد أن يقــارن ربيع **الــدار البيضــاء** بربيع **أنــامر**، الربيع هنا معطــاء، والحيويــة، بينما لم يتبق خطوط باهتة لربيع مفترض. قالت والدته، بعد أن غامرتها فرحة عظيمة بقدومه :

- كادت **زينة** تلتحق بك، في **البيضاء**، لو لم تحضر.

ضحك في تسامح مشوب باســتغراب، خلع سترته وحذاءه، واستوى جالســاً على سـجاد في غرفة الضــيوف. إلا أن الأم، أدركت بخلده، بفطرتها، فقالت :

- كانت ستسافر مع عائلة **السي حسن**.

فتح الشـــرفة المطلة على السهل- كأنه يطرد عنه الاندهاش.

لا يريد الحـــديث عن **الـــدار** إطلاقاً، فهو قد عاد منها، بعد سويعات قلائل ماضـــية، ولا يحب تلك التمنيـــات الـــتي كالسـحاب، فيتبعها الإنســان، إلى أن تتبــدد الآفاق. سألها :

- ولم هذه " العجلة " ؟

شعرت بحرج، فأردفت متخلصة :

- على كل حال، ما زال لم يتقرر سفرها، لأن حرمه، تريد البقاء في **تافراوت** مدة أطول.

لم يلق بــالا إلى هــذا الموضــوع، يسألها عن والده؛ فتنهدت متحسرة :

- مســكين، **فــاتح** ! لقد رهن كل أملاكه من أجلك يا قرة عيني.

ثم التفت إلى **زينة** الـتي كـانت بـدورها، تنصت لكل ما يقولان، فأمرتها

- هيئي لأخيك فطوره.

دلفت الفتـــــاة إلى وحيدين.

تساءل :

- أين أبي الآن ؟

- يعمل بضيعة في **تافراوت** ليغطي بأتعابه، مصاريف البيت.

عض شفتيه : لقد أصبح أبوه، التاجر، أجيراً.

عادت تتمم كلامها :

- لا تظنن أن تكاليف المعيشة هذه البلدة. نجن هنا، يا بني، كأهل المدينة، حاجة إلى أكل جيد، وطبيب، وتربية.

كانت **مماس**، تتحدث بانفعال، جعلها تبدو صغيرة، رغم أن سنها، الخامسة والأربعين. لا فرق بينها إذن، وبين الشابة الأوروبية التي صاحبته في السفر **تيزنيت** إلى **أنامر** ... كل الناس سواسية، الفقر المدقع الذي يحول بعض الناس إلى الحقارة والوضاعة. فعلا، ظهرت عوارضه على والدته، في نبرات صوتها، على وجنتيها الذابلتين، وفي ثيابها الزهيدة التي محتها شمس **أنامر** خاف أن تذوب أسى وقنوطا، فقال :

- بعد قليل، أغطي كل النفقات.

قالت كالمغلوبة :

- ذلك ما أتمنى.

ثم تحولت تسأله عن الأقارب المغتربين في المدينة، فأخذ يخبر عن كل ما تسأله

بينما وضعت **زينة** " صينية الفطور" أمامه. تحركت شفتاها في ابتسام :

- أرجو أن تأكله بشهية

يأكله بشهية ؟ لقد انسدت شهيته، إذ يركز بصــره من الشــرفة، على **أزاغار**، والواحة الممتـــــدة من **أنـــامر وأنيل** لتلتقي **تيدلي** التي تسبح بدورها على الهضـاب لتتعـانق مع واحة **أنــامر** في عشق أزلي، نخيل نخيلاً، وأشجار من الزيتون، شـارفت ثلاثة قـرون، تتخللها أشـــجار الســـماق و" إيركـــل" برائحته النفاذة، وقرون تمتد إلى أيام **المنصور**...

هل له أن يـدرك سر وطنه الكبـير من الماء إلى الماء، من خلال رائحة العشب في حقول **أنامر**؟

لابد أن تتمدد الدائرة، وتتسع حتى تحيط بكل شــيء. اســتفاق على صـوت **زينة** تلح مجددا:

- أرجو أن تأكله بشهية !

2

يلتقي شبان القرية : فتيانا وفتيات، أصيل كل يـوم، في **تادينـارت**، إلا في أيـام **أحـواش** الرقص الشعبي- أو في عرس، يتغازلون. وهناك، تدار أكؤس الغرام، لكنه غرام عذري في كثير من الأحيـان. فتلك اللقــاءات؛ وإن كــانت تــدور محـور عـذري، غـير منتهـك، جعلت بعض الطلاب المتفلسـفين، المتمنطقين، يضـجون بالشـكوى، داعين إلى محاربتها، لأنها في نظرهم (تجـرى منـــأى عن الأعين الكبـــيرة، وكل ما الأعين، يجب إعادة النظر فيه) حجتهم، أنه في

تلك اللقاءات- مثلاً - يتشبث **زيد بهند**، ولا تلبث **هند** بدورها، أن يتزوجها **عمرو**، فتصبح هنا، مشكلة المشاكل"، لأهل القرية المحافظين على تراث قديم من التقاليد؛ وهي حجة ضعيفة لاحظ ذلك شيوخ قدامى، لهم دراية كبيرة بتقاليد **العآمت**.

قال بعض الطلاب، ممن أنوفهم في كل صغيرة وكبيرة :

- ما جدوى هذه اللقاءات، إذا على مرأى ومسمع من الآباء ؟

فأجاب الثاني :

- الناس هنا محافظون، كيف يجري ذلك؟

- **زيد مع هند**، وأخيراً يتزوجها **عمرو** ما رأيك في هذا ؟

- البقاء للأقوى. قال ثالث بتشاؤم :

- ما كل الأزواج أقوياء- أجاب الثاني.

- هل ينطبق ذلك على تقاليد القرية- قال الثالث. ضج الثاني:

- بالطبع لا.

قال الثالث :

- أقترح أن يجري ذلك تحت أنظار الناس، فالمغازلة لا عيب فيها.

ثم يسدل الستار، على المناقشة العقيمة، طالب رابع:

- كـان ذلك يجـري أيـام الطيبوبـة. أما اليوم، فإننا أمام فضول الأدعياء والمتحذلقين.

إنه صراع أجيـال : جيل له مفهـوم، تال، له مفهوم آخر، وربما تعقب أجيال متباينة المفاهيم، هكذا كان يعتقد هو.

التقى بشـاب كـان يعرفه جيـداً يغترب في المدينة. إنه **قاسم بن عدي**. كم كانا يلعبـان في طفولتهما جريـاً في أزقة **أنـامر** فلا يكادان أن يفترقا، حتى اغترب كلاهما !

تبـادلا التحية والسـلام، هنـأه هـذا الأخـير، على حصوله، على شهادة البكالوريا، فشكره، ثم إن **قاسم** صـحبه إلى الواحـة، كأنه تـذكر طفولتهما.

شـارف الشـابان **تادينـارت**. وفي طريقهما التقيا بأفراد **العآمت**. وعلى مقربة من زيتونة، فتاة رشيقة القوام، ذات حور في سمراء في غير سواد، بيضاء في غير شقرة، كاملة الأنوثـة، تزخر كلها بمفـاتن الحب، ونضـارة الصبا. ما أن رآها، حـتى قـال في نفسه " تـركت السـمراوات والشـقراوات **بالبيضـاء**، ولكنـني حللت الآن ببلـدة الفـواتن !". أما **عدي** فقد تصنع عدم المبالاة.

كانت الفتاة مازالت تقتطف لها حشائش، حينما تذمرت، فأخـذت تبحث عن شـيء مفقـود، مفقــود فعلاً، ثم رفعت رأســها عن الحشــائش، ونباتـات الطفيليـات الجانبيـة، فاسـتقامت، التقت عيناها بعينيه، قالت برزانة موجهة كلامها إليه :

- **أيها الأخ**، ألم تر في طريقك حذائي ؟

والتفتت إلى **قاسم بن عدي** الذي بدوره :

- لم أشاهد أي حذاء في طريقنا.

ودون أن تكـترث بجوابهمـا، راحت تبحث عن فردة الحذاء هنـا، وهنـاك. وسـرعان ما شـاع الخبر بين **العآمت**.

أخذ يتصـور فتـاة في مثل هيئتهـا، تمشي بفـردة واحــدة، تطأ شــوكا وحصــى، ربما العقارب في غسق المساء، أو تخرج الأفاعي من أجحارها؛ فالأمر ليس إذن سهلاً.

انكب الجميع على البحث الحـذاء، الكل في سـباق، سـخر منها ومنه شـبان أدركـوا أنهم لن يعـثروا عليهـا، وكـانوا أقـرب الصعاليك من خلال حديثهم إليه :

- " اشـــتر لها حـــذاء جديـــداً... بع دفاترك".

- " ليس هناك بائع الحمص، كما يألف التلاميذ في **الدار البيضاء**". قال آخر، يواصل تهكمه. أما الثالث فغمز :

- " الناس هنا لا يأكلون الخروب، إذ تعلف به البهائم فقط !" تمالك أعصابه دون أن عليه رد فعل لما يتهكمون به، فانهمك في البحث عن الحذاء المفقود. لما تعب، ترك الجميع. اندفع مع **قاسم بن عدي** نحو **"الوادي".**

عبرا جسراً صغيراً حجرياً، ما أن شارفا شجرة تفاح، حتى حياهما فتى في نحو عشرة، قصير القامة، يبدو على وجهه، كآبة، وشأن عظيم، يرتدي قشابة شلحية وفوقية، وكان قد أرخى شعره القصير، غرة مسدلة جبهته الواسعة، كانت هيئته، أقرب إلى **بلزاك**... فتى ذو جبهة نحاسية... تقدم **قاسم بن** فسلم عليه :

- مساء الخير، **بدر**.

وفعل مثله **عبد المالك** :

- مساء الخير !

ثم سأله **قاسم** بالفرنسية :

- كيف بلدتكم **آزرو- واضو** ؟

فشرع الشاب حينذاك، يرتل قصيدة بالفرنسية مطلعها : " وداعا قريتي **واضو** !".

أحس **عبد المالك** بدوره، بنوستالجيا تجـاه قريته **أنـامر** الـتي تعـني المشـمّس المعـرض للشـمس. لعل أجـداده في أثـرتهم القبلية، اعتقدوا أن الشمس لن تغيب عن هامات قلاع **أنامر**، كذلك، قد تكون **آزرو-واضـو-حجر الـريح**- شـاهدة على هامـات الجبل وذراه تكون بقية القـرى شـاهدة على ذلك السـمو ربما اكتفى الأوائل باسم **أنـامر**، لسـبب وحقيقي، كقياس الزمن بالشمس وحسب...

كلا ! فلا أحد يجادل في ذلك السمو، سـوى لحضانة جبل **الكست** الممتد طـولاً وعرضـاً، الجانب الآخر- تاسكَايان- الذي هو **إداكنضيف** بالنسبة **لآملن** أو **آملن** بالنسبة لـ **إداكنضـيف** منبع الجمال، والفتنة، والرقة، والنخوة.

عبد المالك، كثـيرا ما انتابته العشق الجنـوني **لحجر الـريح والوادي، والصخر**.

هو وحـده- من خلال المخطوطات- يدرك كيف كان يشتعل **الوادي**، **وفوق الوادي**، **وداخل الـوادي**، في **الحْركة** أو كيف تنشـغل هـذه القبائل بالمـآثر بين **جزولة** وبين **تاحقـات**، فتشـتعل **آملن** كلها إما يذكي المفاخر، وإما ناراً تأكل الأخضر واليابس.

تبتدئ أحرف التنابز الأولى تتوالد من طين بليـل، وتتعـانق مع وهْم الرفعـة؛ فيسـري العشق حينئذ، في الوادي كله، في واحاته ونخيله.

تبحث الأحـرف عن طفولة لحن، في عين الشمس، في اليباب، وفي خرير المـاء. ذلك سر الأسـرار، يغطيه الليل بالقلاسـي، ويسـكب عليه النهار، سـراباً. يلمع مع النجـوم، ويخبو بـبزوغ الشـمس، تبحث عنه الـذؤبان في الجنوني. لكن **الأطلس** يخفيه أبداً: **الأطلس** جبـار، إرادة أعظم من المـوت ! الذئب شيئاً !.

أخذ يرسم طوبوغرافيا للحلم، يرسم قصـيدة عـذراء، يلثم الشـفة، شـفة رؤيا بمكنونـات المسـتقبل، يرسم بعباراتـه، يسـحق المراحل، يحرقها على أنقاض ماض مندثر.

وادي أملن، انتقام لثأر مدفون، وانتهاك لهدنة بين قطـاع الطريـق، والسـفاكين، مزايـدة طوطمية كثـيراً ما أدت إلى محو من كان يحكم هذه القبيلة أو تلك ؟

أشـياء كثـيرة كـانت تـؤدي بالأجيـال السالفة إلى مثل هـذا الجنـون : يقطعـون مئـات الكيلومـترات في الغربـة، ما **وطنجة**، **والقنيطرة**، من أجل الأخذ بثأر ما، أو نزع شجرة لوز من يد غاصبيها.

سأله **قاسم بن عدي** :

- ماهو أجمل منظر في **وادي أملن** ؟

ضحك في ابتهاج، فأجاب :

- أيها المغـرور بسـيارته، لا شـيء من واحات النخيل، وهذه " الكًصور" الممتدة حتى **وارزازات، وتافيلالت**.

ثم أضـــاف كأنما يخـــاف القائمة :

- أشعر دائما بالانتماء إلى الواحـات شـبه الصحراوية، وإلى هذه الجبال التي تنطلق ممتـدة حتى تتلاشى مع الصـحراء الكـبرى، تمهد الطريق نحو السهوب القاحلة، حيث رمال تتحرك، وجبـال أخـرى راسـيات، وحيث تتـدفق حضـارة أخـرى **للطوارق** في بطون المدن الطينية.

- أنت مجنـــون حقـــا. قـــال **قاسم عدي**.

تركه في تأملاتـــه. مـــاذا للفقـــراء عبقرية سوى تذوق الجميل، والبحث عنه ولو في المفازات؟

عاد من حيث أتى بدون رفيق. أما **قاسم**؛ فذهب لقضـاء بعض مآربه في دوار **مسعود.**

وفيما هو يقطع جسراً، سمع نسوة يتحدثن عن فردة حذاء نسائي. تنفس الصعداء، تردد قليلاً، إلا أنه تجرأ، فتقدم يلتمسه منهن:

- إن صاحبته جادة في البحث عنه.

مدته إليه إحداهن، ليستأنف طريقه الأدغال. وما لبث أن وجد نفسه في **تادينارت.**

كان لا يزال يسير بعد أن اجتاز الجسر الحجري الصغير الذي قطعه قبل.

ما كاد يرى **العآمت** حتى لوح بالحذاء، رأته صاحبته فعرفته، جرت إليه تريد أن تأخذه، لكنها انشغلت به هو، إذ بدا لها، شاباً القامة، جميلاً في غير تأنق، حسن الهندام. ما كادت تضع يدها على الحذاء، حتى متناول يدها، قال بجراءة لا يدري من أين أتته:

- هذا الحذاء قد عرفناه الآن. أما كان لنا أن نعرف من أنت؟

احمرت وجنتها، ترددت :

- من تكون أولاً تلك الأجنبية التي جاءت معكم في السيارة هذا الصباح ؟ !

- إنها فرنسية وكفى. قال غير مكترث بالسؤال.

- ما سبب قدومها ؟ (تجس نبضه).

- لقضاء بضعة أيام في **تافراوت**، حسب ظني، قبل حلول عطلة الصـيف. ثم أردف :

- جاءت لدراسة تقاليد النــاس في **آملن**.

- إذن هي معلمة أو أستاذة !

- أجـل، أجـل، اسـمها مـدموازيل **بوديه** أستاذة بكوليج للبنات في **الدار البيضاء**.

نفذ صبره :

- من أنت ؟

تجاهلت سؤاله، ألحت عليه :

- قل لي أتحبها ؟

- بهذه السرعة ؟

- أجل بسرعتك المعهودة.

تأملته بشيء من الإحراج، ثم أضافت :

- لك عينــان جميلتــان، تأسر بهما كل رأتك.

وفيما تفاجأ بهـذا التغـزل غـير المنتظـر، تنهـدت هي، فــاحمر وجههــا، لكن جرأتها إليها:

- آه !! وقوامك الرياضي هـذا الـذي يبـدو فيه وجه يزخر بدلائل البشر.

وفي ما تظاهر بعـدم اكـتراث؛ وقد بلذة النصر والهزيمة معا :

- إذن، فأنا محظوظ.

احتجت :

- لا تسخر !

وبعد ثوان سألته :

- أين تعارفتما ؟

أقحمت خلوته بهذه الأسئلة، فاضطر أن يجيب بشكل طفولي:

- في التاكسي. لم نتحدث إلا عن جمال هذه البلدة.

تهدج صوتها، علته نبرة من التذمر له به سابق معرفة قديمة :

- حسبك ذلك، وكفى !

لماذا تبدو النساء في الجنوب صرامة وصدقاً؟ **المرابطون** كانوا ملثمين. أما نساؤهم، فكن سوافر. سبق له أن رأى مرابطة في الجنوب، لأول مرة، فتورط في الإعجاب برقتها وجمالها إلى حد الجنون. لا يدري سر ذلك، بينما كان غيره، لا يعيرها أي اهتمام. طوى سرها في قلبه، لينصرم مع الأسرار الأخرى. ترى، كان صادقاً مع نفسه حقاً ؟

ما زال وقع سؤاله يطن في أذنه أنتِ ؟" هل هو سؤال وجيه ؟

أليس سوى عبارة انفلتت من دهشته ؟

انتعلت حذاءها، فانطلقا في أثر **العآمت** الذين شارفوا الدوار. يبدو أن الجماعة، بدأت تبتعد عنهما. سار إلى جانبها. وفي أثناء الطريق بادرته بجرأة : " ألك خطيبة؟" وكأنه وجد شيئاً ضاع منه:

" كوني أنت تلك الأنثى التي يرسمها الخيال في الأعماق، تعالي". أخذها من يسراها بجرأة غير معهودة، وأضاف : " إياك أن تكوني أفعى تغدر بي !" أفعى ؟ ما خطرت بالبال، إلا وارتسمت معها صورة أفعى خطر رجل، إلا وارتسمت معه تفاحة ! كانت تنظر إلى حلقه حتى عند ابتلاع الريق. حجبتهما زيتونة عن أفراد **العآمت**، ثم دس وجنتيها، التقت عيناهما تحت أشعة الأصيل، رشف من عصارة شفتيها الزاخرتين بالأنوثة الطرية، ونضارة الشباب، استغرقت نشوتها إلى هذا الحد، نسيت كل شيء، الحذاء المفقود، والفصة، وموعد دخولها إلى أزالت كل الحواجز التي كانت تحول دون حريتها " من أنتِ" لا يهم ! يسألها من هي ؟ إنها اندفاعة موج يتكسر، يرسم دوامة سحيقة في الأعماق. هذه هي ! بركان من العواطف الجياشة ضلت الطريق. أدغال الواحة تحجب ذلك بالنسبة إليها.

هو يعرف تفاهة سؤاله الذي يسعى للبحث عن الأكناه. لكنه عاد يسألها في غمرة

جرأته: " من أنتِ ؟" تخلصت منه باحتراس: " لا جــدوى من الســؤال ؟ تســألني من أنا ضحكاتها المتواصلة، لتمحو أسـئلته، وتـترفع على جرأتــه، بينما ظل مشــدوهاً. اســترقت هي النظر حواليها، ولم تسمع إلا تحنحة[2] أصـوات **العـآمت** ونداءاتهم، على المتخلفين للالتئام والتجمـع، الافـــتراق. رمت حشائشـــها على الأرض، قبلة حـــــرَّى، ثم تخلصت من ذراعيه بمهارة. عادت تحمل حشائشها، تسويها في سـلة الدوم [2]. تركته وحيداً تجري للالتحاق **بالعآمت**.

ملأ صــوتها شــرايينه، جــرت نــبرات الصوت في كيانه كلــه، ظل يسـائل نفسه : " من هي؟"

نظر حواليـــه؛ وهو لا يصـــدق، أشجار الزيتون الكثيفة صامتة. ملكت عليه كل حواسه، سمع صوتاً بداخله:" متى أصير كالظبي، أسير على حواشي الصخور؟".

لو كـــــان شـــــجرة دفلى العذارى، يغتسلن في الـوادي بعيـداً عن الأنظـار، لأكتشف أسـرار هـذا الـوادي، أو تلك الفجـوة الأرض، لو كـان يجـالس عـرائس البحر كل يحتسي من أشعة الأأصيل ! ماذا يجدي ذلك الاكتشاف ؟

---

[2] - **القرويون في الجبل، يستعملون الهمزة الممدودة أو الــــواو المشــــبعة للنــــداء، وقد ينحنحـــون الاستحســان، وكثــيرا ما يضــفي الصــدى على الأصوات، جوا موسيقيا رائعا.**

" من هي؟"

إنه عرضة للمفاجـــــآت منذ **أملن**. وتحت تأثير الطبيعة والناس، سوف يتعلم من تجاربه كل شــيء، ســوف يتخلص من لصق بــه، ليبــدو مع نفسه في وضع فطــري. ومع ذلــك، لن تمكنه براءته إلا من الانــدحار، ومرات ...

ولن يكتشف شيئاً، أو يظفر بمعنى.

غريب في مسقط رأسه!

3

جلس على السطح العلوي، كانت والدته منهمكة في طبخ الخبز في الفرن الــبربري، راحت **زينة** تحلب البقــــرة. بعد دقـــائق، والده، تقدم فقبل يــده في خشــوع، هو يــدرك تقبيل اليد، إنما هي عادة قدمت إلى المنطقة من الغرب[3]. قال **السي فاتح** بصوت منهزم :

- كيف أهل **الدار البيضاء** ؟

- كل الناس بخير.

استرسل **السي فاتح** :

---

[3] **- المقصود ب"الغرب" : المدن كالدار البيضاء، والرباط إلى طنجة، وكانت تطلق قديما في سوس على مدينة القنيطرة ونواحيها.**

- أحوالك المدرسية، أنت ؟

لم يجد حرجاً في الإشارة إلى وضعه :

- على ما تــراه من شــدة احتيــاجي المصاريف.

- طيب، أهلاً بك وســـــهلاً حال.

كـانت الســيدة **مامــاس** تتــابع جيــداً، وباهتمام، ما دار بينهما. ومن ثم، أخذت تقول :

- **عبد المالك** يحاول أن يبز أبناء القرية جميعاً (وتنهدت).

رد عليها :

- ذلك لا يعنيـــني في الدرجة أريد أن أصبح محامياً، أضمن لكم ولي، عيشاً رغداً.

أضاف والده على قوله :

- الأمور بيد **الله.**

سارعت **ماماس** تستدرك :

- **عبد المالك**، في حاجة إلى مسكين !

رد الأب في تنصــل، شــأن من يــزيح كاهله مسؤولية جسيمة :

- لقد رهنت حقولي كلها من أجله.

ثم أضــاف في تحسر : " ها أنا جنان **السي عابد** !" تدخل **عبد المالك** مخففا

عن والده: " إذا ما أصبحت محامياً، أرد لك يا أبت كل اعتبار". استبعد **السي فاتح** ذلك : " أسـأعيش حـتى أرى ما تـدعي؟ " طمأنه ولم لا ؟".

أبدى **السي فاتح** مخاوفه، كرجل حنكته التجارب :

- أخشى أن تشـغلك عنا أنـوار الزائفة.

- أبدا ...

حاول **السي فاتح** رده إلى الواقع :

- يا بـني، إنك لو أمعنت النظر جيـدا وضعنا، لرأيت أن قريتنا هـذه، جـديرة بـأن تكـون ذات أهمية.

أضـافت **مامـاس** على قوله : " أناسـها أيضا في حاجة إلى وملبس، ومسكن، وإلى الترفه". تذكر مبدأ المساواة بين البشر، فغمغم مـرة ثانية : " الناس سواسية".

وضـعت **زينة** طـاس الحليب بين والـدتها، قـالت: " هـذا كل ما احتلبت مسـاء اليوم !".

لم يتغير شـيء أبـدا في البلـدة : الطريق غـير مسـفلتة، لا تـزال النسـوة يملأن جـررهن وقـربهن الجلدية بالمـاء، لا أحد فكر في مشـروع

تزويد القرية بالماء والضوء، في حين، توجد تحت القرية، جنات وعيون جارية ! الأقسام الدراسـية، تكاد تكون مهجورة. يوماً مـا، سـوف تغلق أبوابها نهائياً، فتصـبح مـأوى للكلاب الضـالة. ويومـاً تصبح هذه البلدة الجميلة مأوىً للخنازير البرية ومرتعـاً لها وحـدها، دون سـائر سـكان **أنـامر** وسيسـتعدي بنو البشر تلك الحيوانـات الحقـيرة على إخوانهم، بواسطة تحرير عقوبات، ثم **الإنسان** تحت حكم أضعف الحيوانات التافهة.

السبب ؟ تخطيط ارتجالي لسياحة خيالية بعيـدة عن أية عقلانية تضع هـدفها الأول **الإنسان** في الجبل.

عـوقب أبنـاء **أنـامر** جماعيـة،سـجنوا. صـودرت كتبهم وخـزائنهم، فتشت دورهم تفتيشاً دقيقاً أيام **الحماية**.

جـاء **الاستقلال**، وجـاء مسـؤول محلي كان قد قاسى بدوره ويلات السجون، جـاء على تعليم البنـات والبـنين، وعلى غـرس صـفحة الجبل الأصم بـاللوز... بعض النـاس تأسف عـدم تنفيذ الوصـية، البـاقون رأوا أن ذلك أحلام، أحلام رجل سلطة، بدون تخطيط للمشروع.

صدر **الكست** الأعلى مازال مشمّساً **كأنـــامر** ! تـــراه يطل على الآفـــاق واســتعلاء ! هــؤلاء النــاس، يعيشــون بالكبريــاء والتبخـــتر، يســـتمدون ذلك من طبيعة الصـــخور الشاهقة المانعة، حيث تسـكن النسـور والعقبـان الـتي تحـاول عبثـاً تقليد الطـائرات المنطلقة مطـار **بنسركاو** ! فـإذا ما أعيتها الحيلـة، هـوت بأجنحتها إلى ســـفح الجبـــل، تبحث منفردة، تنقض عليها ! يلي ذلك اختصام واحتجاج الدجاج ...

... وانقرضت الطيـــور الجارحـــة، انقرضت حيوانات أخرى ضـارية. الخـنزير الـبري وحــده، يســود في أرض الأوليــاء والصــالحين مرقه وشـحمه، يسـيلان فــوق الصـخور. أنت تأكل لحمــه؛ فمالك وما لمرقــه؟ دعه المهم أنك لا تأكل لحمه. كان كل شيء قبل حلـول **ابـرايم أوبـرايم**[4] طـاهراً يـوحي بـالقوة والشـجاعة والمناعـة. من حق الإنسـان حينئذ يزهو، أن يحب، ويـرفض، أن يكـون مسـؤولاً،

---

[4] **- ابرايم أوبرايم : ابراهيم بن ابراهيم : لقب الخنزير الــبري في وادي أملن، هنــاك أســطورة تقــول ابـــرايم أوبـــرايم : امش مع طريقـــك، طــريقي" ويزعمــون أنك إذا خــاطبت بها الخــنزير الـبري، فإنه لن يؤذيـك، لاعتقـادهم أن هـذا الحيـوان يســير دائما في اتجـاه مسـتقيم مسـالما ما لم أحد.**

حقه أن يكون شيئا أو يتمنى ذلك إذا لم يمتلك سوى إنسانيته الفجة.

لم يتغـير شـيء هنـا، وهنـاك، سـوى الــزمن يــركض إلى الأمــام بأحداثــه، وأناســه، وعوالمه المتخيلة، في حين أن أبناء **أنامر** يركبهم وهم الكبرياء والتفوق، قد يجدون أنفسهم ذات يوم، في مؤخرة الموكب !

منذ أن وضـعت **زينة** طـاس الحليب يدي والدته: " هذا كل ما احتلبت اليـوم، في المســاء !" هاجمته أحلام ذهنية وقلبيــة، لو راعي غنم وبقر، يصعد إلى الجبل، يبني له هناك " عزيبــا"، يمسي ويصــبح مع الماشــية، الكلاب، ضد الذئاب، يجني صوفاً ولبناً وافراً، فلا يمر عـام، حـتى تتكـاثر شـياهه، ضِـعف ما يملـك ! أين تتجه البلـدة إذن ؟ **أنـامر**، هي كما تركها منذ سـنوات، لا تـزال تسـبح في أشـياء توافه، غارقة في سبات عميق...

ومع ذلك، فأهلها كرماء، يحبون الضيوف، لكنهم طموحــون بكيفية تتلاءم وعقليــاتهم: كلهم يريد أن يمتلك جاهــاً وقــوة، وثقافــة، فويل ينقصه شـــيء من ذلك! حـــتى التجـــارة ثقافة، واللهجات الأجنبيـة، وملك سـيارة مـودرن، كل ذلك نوع من "السيادة".

قاسم بن عدي واحد من أصحاب "السيادة"، أنهى تعليمه الثانوي، فحدث بينه وبين هــذا الشــيء المســمى في عــرف المدرسي "ثقافـــــة"، شـــبه قطيعة : انغمس مستودع للسيارات القديمة بمعية والــده، **البيضاء**.

ركب ظهر طمـــــوح تمضي بضعة أعوام، حتى صار من كبار الأغنياء، أثـري ثـراء فاحشـا. أهل القرية لا حـديث لهم، عن مشـــاريعه الضــخمة، وأرباحه والعمارات التي صارت من عداد أملاكه. عرفه **عبد المالك**، قبـل، صـفر اليـدين، لا حـول قوة ...

... ودارت دائــرة الــزمن، فلمع نجم **بن عــدي** في بلــدة **أنــامر**، كما لمعت وشموس أُخر عديدة؛ وهذه أيضا ثقافة، بــدلاً ثقافة غــرس الجبل بــاللوز، الــذي كــان المسؤول المحلي؛ وهو يعتقد عن إيمان راسخ، ووطنية قوية، أنه يــؤدي النصح إلى مواطنيــه. قد يكــون ذلك أيضا حداثة ونمــاء، بــدلاً من يكون المرء راعي غنم في جبل **الكست** !

لكنه هو، وأســرته، لا يجـدون ما ينفقـون. حكى لصــاحبه **قاسم**، واقعه المـؤلم، والــدوافع الـتي دفعته للعـودة إلى القريـة-قبل الأوان- دون

إتمام دراساته. ولمح له مراراً، عسى أن يشفق عليه فيتـولاه بعناية ماليـة؛ حـتى وإن كـانت قبيل السلف، لكن الشاب التـاجر، أشد فطنة الطـالب الـذي يـروم مهنة المحامـاة، الـتي بعيدة المنال، فكان يجيب :

- إني أقـترح؛ والحـال هـذه، أن تكف الدراسـة، فالمـال، هو مفتـاح المشـاكل جميعـاً، وأخذ يستشـهد له بتصـريحات الـوزراء، الأوساط الحكومية.

وقال الشاعر **بدر** مؤيداً قول **قاسم** :

- حسـبي من التعليم، بعض سـنوات الثـانوي؛ وقد اهتـديت إلى قـول الشـعر، القصة بالفرنسية. ثم استطرد موضحا :

- أنا لا أبحث عن ماهية الأشـياء، بقـدر أبحث عن كيفيتها وجماليتهـا، يكفيـني تـذوقها ! هـذه أيضا ثقافـة، وامتلاك؛ وبلادة الحواس، بطريقة ما.

وقـال **قاسم بن عـدي**، بعيـداً عن التباس :

- أنا لا أبحث عن كيفيتهـا، ولا بتاتاً، إني أريد الجمع.

توقف قليلا؛ وقد لـوى قبضـته، ثم بعزم ماض :

- هنا مكمن الجمال ! ما أجمل أن يجمع المــرء الطوابع أو حــاملات المفــاتيح !... أما يتأمل شيئاً واحداً؛ فذاك لعمري، ضياع للوقت !

هــذه أيضا ثقافــة، وإيهــام بالســير الأمام.

ودون أن ينتظر أحد جوابــــه، **المالك** :

- كل الأشياء في حاجة إلى نظام.

ذهب كلامه في الهبـــاء... ودخلت في ســديم. إلا أن في هــذا الــوادي الــذي بالمداشر في رفـــق، كأنه حـــزام غـــادة المحاســن، جمالية تفــرض وجودها على الأجـواء، على أطــراف هــذه الأرض الممتــدة في هضاب متواصلة من الشرق حتى الغرب. تتمثل هـذه الجمالية في اللامــرئي، وفي اللامحسـوس؛ وحــتى في الألــوان القرمزيــة، في تمايل أشـجار الدفلى، تنحـني في جنبـات الـوادي لتتأمل حبـات لؤلؤية من الحصـــى. هل تحتــاج هــذه الجميلة، والأفكار المنبثقة عنها إلى نظام؟

أنين شاحنة نقل الإسمنت وأكوام الرمل، تعاند عقبة طريق **أنيل**، ساحة الحوض : قناطر من البشاعة والرتابة والملل، ستحل قريباً محل هذه البنايات والأبــراج الحمراء.

لم تعد البلدة تشبه أهلها، ولم يعودوا يشبهونها على ما يوحي به شكل وطريقة المحادثة، ونمط العيش، لكن مازال الناس يشبهون أديم البلدة، طالما أنهم يحرثون، يزرعون، يضحكون، يترنمون في بساطة؛ يهشون إلى الغريب، يكرمون وفادته، يسألونه عن الحال، أو يلتمسون يستجيرهم فيجيرونه، يستعطيهم فيعطونه. أرض ورثها عباد الله الصالحون، كانت عبارة أدغال، تسكنها وحوش ضارية. ومع ذلك، كانت تندلع فيها صراعات بين القوم الصالحين والطالحين : سكان هضبة هذا الجبل، والقرى المقابلة، حسب الأثرة القبلية.

يروي بعض شيوخ القرية، أن **أنامر،** تكن موجودة في موقعها الحالي، لأنها لم تتكون بعد. هذه بداهة. قيل إن الدوار، كان يبتدئ تحت **أزمز** مترامياً من منحدرات **أوزموتن**. ويبدو من خلال الرواية أن **أنامر** القديم، ازدهر لوجوده في **أوزموتن** أو قريباً منها. ثم إنه حدث في مناسبة أحد الأعراس جماعة من **العآمت**، وسفهاء البلدة، فربطوا غصناً من أركان مدهوناً بزيت، مع نسر، فلما كان **أحواش** ليلاً، أطلقوه محلقاً من شاهق. لما شاهدته نساء القرى المجاورة، أجهض بعضهن.

أما الرجال، فقد اندهشوا بدورهم من تلك الظاهرة. في الغد، لتلك الليلة، سألوا سكان البلدة عن الظاهرة الغريبة التي حدثت في الليل. لكن سكان البلدة سخروا منهم : " ذلك مجرد ألاعيب **العآمت** المدهشة".

ومن ثم، بيت سكان القرى المجاورة أمر غزوهم وترحيلهم، وإحراق دورهم عقاباً اندثرت البلدة، ثم جاء الشرفاء بالإضافة إلى ساكنة أخرى، كونوا بأجمعهم مجمعاً سكنياً، فأسسوا **أنامر** على ماهي عليه الآن.

الأمر من قبل، ومن بعد...

ثم إن تلك الأدغال المسكونة بوحش ضار، أخذت تتحول إلى جنات من نخيل وأعناب، وزيتون، وأزمور، بفضل كد واجتهاد الساكنة الجدد. إلا أن الوحوش المفترسة، كانت صراع مع **الإنسان** إلى زمن قريب. وقد ظهرت دويبة يقال لها **"ويرزان"-** آكلة والأقدام الآدمية- وكان من شأن هذا الوحش أن يتسلق سطوح الدور، فيعمد إلى أكل أعقاب الآدميين النائمين فوقها لشدة الحر، أو يبحث حظيرة الأبقار عن ضحاياه، فيلتهم ضروعها. ذلك ديدنه، حتى قضي عليه بالأحاييل، والشبكات، وقتل تقتيلاً حتى اندثر نوعه، وذهب أثره.

يا ويرزان، انبعث من رمادك وحشاً ضارياً، كل ضروع الخنازير البريةً !

يا ويـــرزان، طهر أرض الإســـلام، الأولياء، **أرض العارفين بالله، المتـبرك أحياء وأمواتاً** !

طهرها من عبث الخنـــــازير، للبقول والمزروعات !

يا ويـــرزان، أنـــزل عليها صـــاعقة الســـماء، أقصم ظهورها واســـلخ جلودهـــا، دماءها !

وفيما كان سارحاً في مثل هـذه الأفكـار، وضعت أمه بين يده طبق عصيد من الـدرة، من اللبن، بينما انهمك والده في معالجة طبخ الشاي، ثم جلست أخته بجانبه، وشرعوا يتناولون عشاءهم...

4

لبست القرية في ذلك اليوم حلة قشيبة، فكل فتاة قد تـأزرت، وعقـدت حـول جيـدها من فضة، وسلاسل مرصعة بالأحجار، وخماراً مزركشـــــاً. زينت المعاصم بأســـــاور مرصعة، فتبادرت كل واحدة في أن تبدو خيراً من الأخرى.

اختلطت أصـــواتهن مع نحيب العـــروس، وصــراخها. وكـانت هـذه الأخـيرة قد حـدقت وصيفاتها من كل جانب، فبدت وسـطهن، ملفوفة في ثوبها الأبيض، على رأســها خمــار العــروس. كانت لا تـزال تستسـمح أهل القريـة، نادبة الذي أخرجها من بيت والديها إلى بيت الزوج.

علت أصوات الصبية في الجو. خرجت النساء لمصاحبة الموكب، بينما اغتنم الفرصة، شبان اندمجوا مع الموكب يحمونه. اندمج معهم تلقائياً، بعد أن علم أن الموكب يسير إلى حيث دار العريس.

سمع بعض الطلبة يتساءلون البكاء؛ ونحن في عرس؟" ليجيبه الثاني سمعت بالنادرة التي يتداولونها من أن واحدة قد زفت إلى زوجها، فبكت طوال الطريق، أحد الظرفاء : عليكم بإرجاع العروس إلى بيت والدها؛ فلا إكراه في الزواج، فنطقت العروس- على غير العادة- فقالت : " معذرة، فهذه عادة، ومن هي تلك التي لا تحب بيت زوجها؟" وبطبيعة الحال، كفت عن البكاء !".

قال صاحبه : " ما أجدرنا اليوم !"

سمع أشياء كثيرة من نوادر العرس والعرسان، سمع عن تلك العروس التي هربت يوم عرسها، فركبت الحافلة إلى عشيقها تاركة العريس وأهله في حيرة، فكانت النتيجة الأمر، فسخ القران حفاظاً على العريس، وحفاظاً على رغبة العروس ضمنياً. مازال كل شيء في يد الذكر الفحل هنا، فعندما يتزوج، يصبح **مولاي** أثناء مجيء العروس. تلك

نعمة كان يفتقدها الذكر، وسيادة، ما كانت تخطر على بال، لولا العروس !

التفت بعفوية، فرأى صاحبة الحذاء المفقود، يغازلها شابان على مرأى ومسمع الجميع، شعر بوخز الغيرة. أيقن أن التعرف قد يورطه فيما لا تحمد عقباه. قفل راجعا إلى العين.

هل كان **ويرزان** يحب حقا متورطا في عشق ليلي، أم كان يكتفي بلحس حلمات الضروع، ثم يقضم عليها بأسنان حادة، فيلتهمها، كما يُلتهم الزبادي ؟

لقد حطمه قوام تلك الفتاة مذ رآها **تادينارت**؛ صار عيباً أمام خيالها، مجنوناً أمام شخصها ورسمها، وهو الذي درس فصاحة العرب وآدابهم، وما نقلوه عن **أرسطو**.

لكن... ماذا تجديه الفصاحة أمامها؛ بل ما تجديه عشرون لغة، لو فاهت بكلمة واحدة، بها مصيره، أو تتركه في غيه، يتخبط في ظلام الطريق ؟

هاهو ينزل إلى هوة سحيقة لا قرار إلى طريق أفعواني، حلزوني دقيق، يصعب الخروج منه إطلاقا. ومع ذلك، فهو راض بذلك العذاب. هل كان **ويرزان** راضياً عندما وقع

أحابيل الأهالي؟ هل أنسته شهوته، وحاجته إلى الطعام، عذاب الأسر؟

أي شـــيء أبرمه معها ؟ أسرته بسحر من القول، وقبلة خفيفة، وأسئلة تـوهم بـالحب، بينما تـنزل به درجـات القيم، العالم السفلي، إلى لغة الجسد المتهور.

وهاهي تتنكر أمـام عينيه لتلك القيم الـتي أوهمته أنها تتمسك بهـــا، وتبعـــده والواقع، تتجاهله، لتجعله على طرفي نقيض مع نفســه، ومنطقــه، وفلســفته، تعــود به كالطفــل، القهقــرى، إلى اللامعــنى. قـال له **بن عــدي** المـــال، مفتـــاح كل شـــيء" بل في يـــدها المفاتيح.

ينسى نفسه، والعرس، وأخته **زينة** اندمجت مع موكب العروس، لم يعد يفكر إلا في صاحبة الحذاء.

" المال مفتاح كل شيء !"

" تعــال يا **ابن عــدي** وادخل من الذي دخلت منه أنا، إلى قلبها، إن كنت من الفاتحين !"

ألا فلـــيرم صـــاحبه ماله في اليم، الحيتان أن كان يسوغ في حلوقها !

الحب، هو الإيمــان بالنصــر، مهما الأحوال والظروف، ذلك الطفل، الملاك الصغير

المجنح، الذي يرمي القلوب بسهمه، فتسبح في اللامنطق، في اللامعقول، في الجنـون، تسـبح أجنحة خفاقة. بصوت الحبيب تهتف، تواقة لروحه تعانق.

هل يدرك **بن عـدي** هـذه القيمة ؟ لا...

لقد مضى دهر على تورطه غرام لا مثيل له؛ وهـو، لو اسـتطاع، أن يلثم صـاحبته بعد التنكر المفتعـل، إذن، لظفر بنصـيب عظيم، ولظهـرت له مكـامن الحيوية في الأشـياء المحيطة به. بضعة أيام، تصبح دهراً !

لو ظفر براحتهــا، لنطق **الكست** ولســمع منه حــوار التهــانئ، يــتردد بين الصخور !! أية رقة تحملها صاحبته !

تـرى، أتكن له من الإجلال والتعظيم، ما يحتفظ به بين جوانحه؟

امتهنه **الــدهر**، وقص جناحــه؛ ودون يخشى ملامــاً، ألبسه لبــاس الأذلاء، أهل الجياع، وما ابتسامته لأهل بلدته، إلا ضمادة تخفي " جرحه" !

تعذب كثيراً، وكأنما أحد لا يحس بعذابه.

ومع ذلك، لا يزال يبتسم للناس.

نعم، هـؤلاء الـذين يمكن أن تتقبلهم علاتهم دائمــا، فــإنهم كــالنقود، لا تكــاد

الحقيقي منهم والزائف، إلا بعد طول مراس، وبعد سبر أغوارهم !

يبتسم لهم، حتى لا تظهر عليه القهر والخذلان...

يبتسم لهم، حتى لا تجعله هذه كالدرهم الزائف بينهم.

ما هذا التناقض ؟

وكأنه التمس لنفسه عذراً فتمتم :

" حتى لا تنفتح في (حقه)، الشامتين شفاة الغليل".

خلع ثيابه، وانغمس في قعر **الغدير**...

5

بالأمس، في حفلة العرس، أذلته أيما إذلال. هل كـان لقاؤهما عبثـاً وعفو السـاعة أذلتـه، لم تكـترث بـه، كـان شـابان يغازلانها مرأى ومسمع من الجميع.

أي عيب في ذلـك؟ لـولا أن لسـانه خانـه، لم يسـتطع بما أوتي من جـرأة مشـاركة الجميـع، فغادر الحفل مهزوماً مهيض الجناح !

وكان قد شعر بتفاهته، متخذاً طريقه نحو **العين**، من منعطف **أنيل** : الطريق وعـر، لا قبل له بـه، شـعر بلسـعات والشمس، تمر على خديه.

لاشيء تغير في البلدة.

خليق به أن يلتمس ظلاً ظليلاً، فاتخذ جلسـته منفـرداً تحت شـجرة وارفـة، لم أكانت كرمة، أم شجرة دفلى، أم شجرة بطم، أم خروبة ...

ظلت الفتيـات... يملأن جـررهن، واحـدة تلو أخرى، حينما عـاد لليـوم الثـاني إلى هـذا

الصافي يصغي إلى خريره، يتأمل مياهه الشفافة في ظل النخيل...

وظل هكذا، حتى لاحت له أخيراً منشقة بين الأشجار، كعروس من عرائس البحر.

بدت له؛ وهي تقترب من العين، صافية النفس، غير مكدرة البال، خلافه؛ فقال لنفسه لماذا لا يهش للقائها، والنفوس الصافية، سريعة التواصل ؟ قام وسار حتى كان على مقربة ليجد نفسه يتمتم باسمها : " **تعزة** !**تعزة** **تعزة** !" هكذا، ثلاث مرات. في المرة الأولى، كان صوته ضعيفاً، غير واضح المخارج. وفي الثانية، أخذ يتضح إلى أن قال : " **تعزة** ! لا إن كلمتك في مطلب هام. نسي كل شيء أمامها، عدا اسمها الذي أخبرته به أخته **زينة**. قاطعته بضحكة عالية متسائلة" حقاً، أين كنت يوم العرس؟ وفي مسكنة وخنوع : جئت إلى هذا النبع أتأمل الطبيعة". وحتى تؤكد له اهتمامها : " سألت عنك أختك، ألم تخبرك؟".

كان قبل لقاء **تادينارت**، لا يأبه إلا ببعض الأشياء المحيطة به، يتعامل مع الإنسان بشكل مطلق في هذا الجزء الجنوبي. عبر اهتمامه بدوره : " بلى، فهي التي أخبرتني باسمك عندما سألتها، فنطقت به". ابتسمت

"الحمد **لله** !" ثم أضافت " أما أنت فقد سبقك اسمك".

هــذه القرية تحفل بالأســماء والنعــوت، تنزل الأسـماء رنانة في الآذان المرهفـة، تسـبقها هيئة المسمى. وربما كان لها وقـع، قبل أن على شخصية معينة، لتقلصها في دائرة معينة بين أسماء البشر. المفارقة، أن المسافة الـتي كـانت تفصله عنها؛ وهو على مقربة منها، كانت تبدو شاسعة، كلما اقترب؛ ففي الاقتراب، ابتعاد، وفي الابتعـاد، اقـتراب، وفي الحلـول توحد بعد معانـاة الاحـتراق حلت في كل شـيء، في كـروم العنب، في الدفلى، في النخلة المستقيمة والراكعـة، بسمة الورود، في حجارة الوادي، في هبة النسيم :

هيلين تلك أتت تزف نداءها

طغيان فتنتها سنًى وسناءُ !

ربما تعـرف عنه كل شـيء. أما هـو؛ في مقام تهجي اسـمها بحروفـه. ذلك هو أصـعب المقامات.

6

اختفت الشمس وراء جبل **أياي** تاركة وراءها ذيولاً انعكست على أحجـار **الكست** أرياش طواويس زاهية، ولا تلبث هـذه الألـوان تنسـحب شـيئاً فشـيئاً، فلا تـترك في الآفـاق حمـرة خفيفـة، كلمسة أخـيرة في لوحة ماهر !

ثم ما مضى إلا هنيهة من الـزمن، زحفت عليها طوابـير الظلام، فأمست **أنامر**

خضم سواد دامس، لا يقل شاعرية وجمالاً عن روعة الأصيل : كون هادئ وديع، تسبح بتقاطيعه، في طرب صوفي، ضفادع حوض القرية، إلى يقطعه عواء ذئب كاسر، يتردد صداه في الأرجاء، فيحسبه السامع، ذئابا جائعة مقبلة على القرية؛ حتى إذا ما أرهف السمع، تبين له أنه ذئب ليس إلا... ثم يتواصل العـــــــــ القرويون أنها معركة حامية بين شرسة. بعد العشاء، آوى الكبار إلى مضاجعهم، إلا ثلة يعدون أنفسهم من **العـآمت**. فما هؤلاء من تناول الطعام، حتى تسللوا إلى دار سيدي الفاهم؛ فهي دار؛ ولا دار مثلها. فمن حيث الشكل، لا فرق بينها وبين عشرات المتناثرة على هضبة **الكست** في **أنامر**. والظاهر، أنها تمتاز عن بقية الدور، لكونها ملتقى لعدة أبطال **ألف ليلة وليلة**. لياليها أغرب الخيال، تذكر فيها مغامرات **السندباد**؛ فلا **سيدي الفاهم** يفرغ من باب من أبواب **ألف ليلة وليلة**، حتى يعمد إلى الرحالة، يروي مغامراته البرية والبحرية، في تشوق، بعد تصرف بطبيعة الحال، من عندياته.

كان **عبد المالك**، واحداً من تسللوا بدورهم إلى تلك الدار، هروباً الهواجس وترفيهاً عن النفس.

لما كان على الباب، سلم ورد عليه السلام، صوت انتهى صاحبه من إيقاد سراج **لافاكوم**، ثم زاد مرحباً، لما رآه وعرفه :

- ٱدخلوها بسلام !

دخل بعد خلع حذائه مبسملاً، **قاسم بن عدي** عاكفاً على جهاز ترانزيستور، يعالج أمواجه، باحثاً عن الطرب الشلحي. كانت الغرفة غاصة بالمتسامرين. ودون أن يكترث هو، بأحد منهم، راح واتخذ له مكاناً جلس فيه، يراقب منه الغرفة في منظر عام.

ساد المكان سكون قطعه **سيدي الفاهم** بنحنحة ندت عنه، تنم عن سلطة مطلقة على "البيت" وأتباعه، نادى على الخادم **بورون** :

- غلام ! هات الطاس.

انبرى شاب صحراوي أسمر الحاضرين، يسكب على أيديهم تباعاً، الماء، صاحب البيت عاد، وصاح به :

- يا لك من غلام غبي ! تعال إليّهْ !

وجره في حركة مسرحية لا تخفى ذوي الألباب :

- ألم أقل لك : ثلاثة- دائما- تدار اليمين ؟ !

تصنع الشاب الخوف، ثم أجاب بعد تردد :

- بلى.

- وماهي ؟

قال في تلعثم مصطنع :

- الكأس، والطاس، والطيب.

- يا لك من غلام الخصال !

قال أحد الحاضرين؛ وهو **بوهو** :

- وما هذه الخصال، يا **سيدنا الفاهم** حتى نتجنبها عافاك **الله** ؟

- أولها، النوم، ثانيها، البخل...

ثم سكت.

عاد بوهو يلح عليه :

- والثالثة ؟

- السهو، وقلة البال، رغم تيسير الأحوال.

- صدقت **سيدنا الفاهم** ! قال **بوهو** في تزكية كاذبة، ثم راح يشرح للحاضرين خصال **بورون** المذمومة : " فأما النوم، فإن صاحبنا، يحلو له النوم، إلا أثناء السمر، رغم ما تناوله أقراص " الأورتيدرين". وأما البخل؛ فأجرته ترى الشمس، بل ترسل رأساً إلى رأسه، لبناء قصر باهظ التكاليف في ... الصحراء !".

ضجت القاعة بالضحك. رمق **بورون** عم **بوهو**، بنظرة عاتبة. إلا أن **بوهو** أضاف

كلامه، دون أن يكترث بنظرة **بورون** : "... وأما قلة باله، فقد رأينا فيه ما ترون الآن ..."

هل وجد الترفيه الـــذي ينشـــده **سـيدي الفـاهم**؟ ما ظهر لـه، هنـاك، إلا للتصحيف والتحريف.

انبرى العضو الجديد يسائل **بورون** :

- وأنت يا **بورون**، ما رأيك ؟

- الرأي- إذا كان ذلك صحيحاً- ما ترون !

ثم عاد **بوهو** يستدرك في لهجة مسرحية مراعاة للعضو الجديد الذي قدم لبضـعة أيـام **الدار البيضاء** :

- العفو، أستاذ !

رفع رأسه إلى **بورون**، آمراً :

- أتمم ما أنت فيه يا غلام.

كــــان **بوهو**، يتمتع ببنية قوية الخمســـين، إلا أن وجهه مكسو بتجاعيد كأنه كتاب سطرت فيه مراحل تاريخ الرجل : منذ أن سافر من قرية **أنامر**، سعياً في طلب الرزق، إلى **القـنيطرة**. بيد أن الحظ لم يواتــه. كـانت سنه دون الخامسة عشرة... وكان؛ وهو على تلك الحال، ينتقل من مدينة إلى أخـرى حـتى انتهى المطاف إلى **الدار البيضاء**، وهي عهد ذاك، قليلة البنيان، باستثناء سور المدينة، وبعض الـدور

القريبة من الميناء... أما ما عدا ذلك، فعراء، ومروج، وبرك، ومستنقعات !

اتصل بسيدة فرنسية، تدير ملهى للترفيه عن جنود الاحتلال الفرنسيين.

وبدأ عمله، غلام مطعم...

لم يلفت نظره في المقهى إلا الطرب !

ولما كانت صاحبة الملهى ذات حساسية قوية نحو **المغاربة** على الخصوص، فقد أشارت عليه بالسفر إلى **باريس**، قصد تنمية مواهبه في العزف على الكمان، فتناولت يد الفتى الشاب، الآلات الموسيقية، ولكنه ما استقر على واحدة...

وبعد أن أعياه الطواف في الأوروبية، اتصل بسيرك. ولما قارب العشرين، انخرط في الجيش الفرنسي؛ **بالجزائر**، ثم **تونس**، وأخيراً، **سوريا**. ولما تحرر **الشام** من سيطرة الفرنسيين، أعيد باريس، ضمن الفرقة الأجنبية.

ولكنه ما استقر على حال واحدة، تزوج بفرنسية، عله يجد في أحضانها مستقراً. ثم أنجب أطفالاً كان يسميهم هو، **علي** فتسميهم هي، **جآن**، على حد تعبيره.

عاد مرة أخرى إلى السيرك يجرب حظه، ولكن السيرك استغنى عنه، لأن عمله المرهق في الجيش، انتزع منه " خفته !"

... ولسبب ما، تخاصم الزوجان، انضم أبناؤه العرب الثلاثة إلى أمهم الإفرنجية، فسموا نهائياً بأسماء الإفرنج.

عاد إلى وطنه المهجور، يعض بنانه كهلاً، لا عمل له، ولا قوة. تتحدث القرية عن مواهبه، واللهجات الأوروبية التي يحسنها. حدث يوما قدم (**الرايس**)- المطرب الشعبي- إلى **أنامر** فتحلق حوله الأهالي، وكان هو بين الحاضرين. وما أن تمكن منه الطرب، حتى (**الرايس**)، أشار إلى الرباب، قائلاً :

- أتسمح ؟

ظل (**الرايس**) فاغراً فاه، غير أنه إليه ربابه، عن قلق وانزعاج تخفيهما ابتسامة صبورة. وما أن تمكن من الرباب، حتى فاستهل أهزوجة شامية، يتابعها بأنغام على الرباب :

... ...

....

....

سايره الحاضرون تصفيقاً بالأيدي طرب عربي أصيل، فاضطر (**الرايس**) بدوره،

أن يسايرهم هو وجوقه. علق بعض من شاهد هــــذه الواقعة : " إنه موســــوعة عالمية !" وقال آخرون : " إنه سندباد الجبلى".

وكأنما عودته إلى بلدته بصـــفة بنت قـرار حاسـم، فقد قطع صـلته ببلاد الغربـة. ولئن غنى أهـازيج شـامية، أو تحـدث بلسـان لسان بلده، فما ذلك، إلا للاستعلاء على بني جلدته. اشتد جـدال بينه وبين أحد المثقفين حول موقع إسبانيا، بالنسبة **للمغرب**، فبينما يؤكد الشـــــاب، أنها تقع في **المغـرب**، يفصل بينها وبين المغــرب، **مضــيق جبل طـــــارق**، يصر هــــو، **الصحراء**، جنوب **المغرب**.

يعمد الشـــاب عبثـــاً إلى **المغرب وإسبانيا**، وموقع كليهما على الكرة الأرضية، فيزجره، قائلاً في حنق :

- دع عنك هـــذه الصـــبيانيات، خـــاطبني بالحقائق والواقع.

- ولكن ...

صاح به في غضب كأنه ملقن :

- قل لي هل زرت **إسبانيا** ؟

- لا. يقول الشاب في وداعة.

- إذن، فمالك تجادل فيما ليس لك به علم ؟ هل **من رأى كمن سمع** ؟

بهت الشاب. أما **بوهو**، فقد استرسل :

- ألم تسمع بما قال الأولون : (حرام تسلم على غير المغترب).

وكالعادة، في كل ليلة، انبرى الحاضرين في غرفة السمر، فغمز الشاب على علم **بوهو**، درءاً لما لا تحمد عقباه. كان ذلك عندما بلغت الدراما عقدة تتطلب حلاً سواء كان معقولاً أو غير معقول. فليكن طريفاً على الأقل، مدعوماً بالمثل السائر !

بعد مضي شهور، تزوج شابة ذات جمال وخفة ودهاء. فلأمر ما، بارت **تاهرة**... ومع ذلك، كانت لغزا. فحين زفت إليه، كانت تطل الثلاثين.

وعوض أن تلوك الألسنة سمعتها، عادة المتزوجات حديثاً، راحت هي تدوس خصومها، نساءً كانوا أم رجالاً. قلما ينجو لسانها أحد، لاسيما من يشملهم غضبها.

أما الزوج البهلواني الجندي، الذي خبر النساء في **أوربا**، وفي **الشرق؛** فقد " **طبقة**". راحت **تاهرة**، في كل نزاع تعاركه، تبادله الصاع صاعين، حتى لانت عريكته. لا لهما إلا الخروج ليلاً، ليجمعا ما تساقط من لوز وزيت، وغير ذلك، من نتاج الفلاحين. فويل

شكا ! فقد عرض نفسه لجراحات اللسان. وقلما تلتئم "جراحات اللسان"، كما يقال !

ما لبثـا، أن أخذ كلاهما عن الآخـر، أصـبحا ذاتـاً متحـدة، يربط بينهما ربـاط خـاص، ووحدة الهدف. فإن اختصما، حمل كلاهما أمتعته؛ فلا يمضي إلا قليل من الزمن، حتى يعـودا كانا عليه من صـفاء الـود، والوئـام، فخصـامهما، (سحابة صيف تقشع)، ليس إلا حالة عرضية.

باختصار، كانا لصـين ظـريفين ! ولا يجـرؤ أحد مع ذلـك، أن يواجههما الظلام !

وعُرف بين القرويين، بأنه شخصـية فذة، يتقن عدة صناعات وحرف، دون أن يتعلق قلبه بواحـدة منهـا، أو كما قـال عنه **الفاهم** يوماً لجلسائه : **"سبع صنايع والرزق ضـايع"**. قيل إنه يتقن سـبعة ألسـن، ولم يبق من لغـات الـدنيا، إلا زقزقـات الطيـور، وقيل يعـرف أحلام الحيوانـات ورغائبها سابقاً في السيرك، فاستدلوا على ذلك بكونه خاطب يوماً حماره؛ وقد خرج به إلى المرعى : " إذا لم يعجبك هذا العشب- مشـيراً إلى المـرعى- فإني أحتفظ لك بقنطار من التبن اليـابس". وبعد مضي ساعات، شوهد الحمار أمام بابـه، ثم إليه يتلقاه، وهو يغمغم :

- أتذمرت من العشب الطري ؟

ودخلت الدابة حظيرة البهائم !

ومما عــرف عنه أيضا أنه مولع بالتــدخين والشاي، والقهوة، فكـان يـدخن سـيجارتين دفعة واحــدة: يضع إحــداهما في زاوية فمه والأخرى في الزاوية اليسرى. إلا أن زوجته حاربت فيه تلك العـادة، وقاومتها مقاومة عنيفـة، فأصبح يدخن سيجارة واحدة، أي أنه يـدخن ما كان يدخن في سابق عهده. فهو، من النوع الذي لا يرد سيجارة أو كأساً عن أحد. أما فقد قطع صلته بها منذ أن وطئت قدماه أرض الــوطن، فطلقها طلاقــاً لا رجعة فيــه. فكــان منطقياً مع نفسه، فقد حل **بأرض الإســلام** غربة في **أرض الله** الواسـعة. كـان يسـمي الفترة المنصرمة من حياته، تيهـاً. أما لسـانه، تفارقه النكتة أبـــداً، فهو نابغة فيهـــا، غبار ! وقد يتخذ أحياناً **بورون**، إذا أعيته الحيلــة، ونضبت الملكة، أداة للتشخيص، وإجراء النوادر.

شرب الجماعة الكأس الأولى من الشاي؛ وقد تسمروا بمختلف أنواع الحكايـات، يتصـدرهم **سيدي الفـاهم**. ما أشد شـوق الجماعة زيـارة الأمـاكن الـتي زارها السـندبادان : الـبري والبحري ! وهم؛ والحال هذه، مأخوذون بتأكيدات البهلوان العجوز. وهل الخبر كالعيان ؟ !

وراح **بورون** كالعادة يفرق الكؤوس على الحضور، ويجمعها متثاقلاً، يتصنع الغفلـة. أما **المالك**؛ وإن ولج لأول مرة غرفة **سيدي الفاهم**، التي سمع عن نوادرها الكثير، فكان من الذين اقتنعوا أنه لا ينبغي إلقاء البال إلى كثير من هـذه الصـبيانيات. في تلك الأثنـاء، دخل يرتـدي معطفـاً أسـود، يتقـدم بخطى حثيثة مكانه الخـالي بين الجلسـاء، الحاضرون، حتى صاحوا بلسان واحـد، فانتبه **المالك** ليجد نفسه، يرفع صوته بدوره، مضطراً أن يسـايرهم، ويـرحب معهم بالرجل : " إذا المساء، أتى الرجل القديم العهد بالسكر !" ابتسم الرجل المنحـني الظهـر، رغم البادي عليه. وفي تلك اللحظة؛ خرج **بوهو** معلناً انتهـاء سـهرته مع الجماعة من طـرف ودعهم : " إلى مثل هذا الوقت من مسـاء الغـد". قـالت الجماعة بصـوت واحد : " مع السـلامة **بوهو** !". بينما أخذ الرجل مكانه المخصص أمام الباب، ثم ما لبث أن أخرج من جيب معطفه بعد أن اطمـأن، زجاجة من " الـروج"، أمامه بحذر. أخرج الكـأس من الجيب الثـاني، همهم : " رفقاً بها، **قد بلغ السيل الزبى** !".

كـان **أبا الحـبيب**، لين العـراك، كالحمل، كثير التصديق، هادئاً، لا يتكلم إلا عند

الحاجة، لأنه مستغرق في خواطر الكأس، أو بعبارة أخرى، خواطره هو، وهمومه.

في أول أمـــره، كـــان موظفـــاً **بالبريد** وحــــدث أن اســـتولى على مبلغ العمومية، فحوكم عليه " **محاكمة تأديبية**"، و"حوسب حساباً عسيراً"، ثم طرد نهائيـاً. ولكن، عز عليه أن يعمل في غير **الوظيفة العمومية.** ولما كـان كثـير اللهـو، عاشـقاً للنسـاء، مقتفيـاً آثارهن؛ راح يرتوي من الملاذ والمسرات، عرض الحائط، بمسؤولية إيجاد " عمل لائق" له.

ويروى أنه تبع عشيقة له، رغم علم زوجته بذلك، من **تيزنيت** إلى **مراكش**، ثم انتقلت إلى **البيضـــــاء**، فانتقل معهـــــا. ولما كـــــانت المطربـات، وكـان هو مفلسـاً، تلطفت لـه، حـتى تخلصت منه بدهاء. ولما بدا له ما آل إليه، اهتزت نفسه هـــزة عنيفـــة، فعـــاقر الخمر في الكبـيرة، وجـالس كثـيراً من النـدامى، شـكا كما استمع إلى شكاويهم، ثم رجع إلى **أنامر**، إلى زوجته.

زجر على " الشـــرب"، تـــدخل الكثـــيرون للحيلولة بينه وبين "بنت الكرمــــة"، الجهود سدى..." هيهـات أن يسـتقيم المـدمنون، ويعودوا إلى فطرتهم الأولى !!" هكذا كان أقاربه، ويتحسرون...

بعد أن سأله السامرون عن أحواله، شكرهم، ثم خلا إلى الزجاجة يسكب الخمرة كأسه، وهمس : (اليوم خمر، وغداً أمر).

جرع الكأس دفعة واحدة؛ وهو يسدل جفنيه.

تأمله **عبد المالك** عن كثب، نفسه : " يهرب من واقعه، إلى الكأس، ثم إغماض الجفون" كما يهرب هو أيضا من واقعه؛ من فقر والده؛ وحب الفتاة صاحبة المفقود؛ إلى دار **سيدي الفاهم**.

عاتب الرجل قائلاً :

- ما هذا يا **أبا الحبيب** ؟

رد عليه تلقائياً كأنه لقن الرد منذ زمان :

- (عرضي وافر لم يكلم)

رد **بورون**، بفضول :

- بل هو في الحضيض الأسفل

وكي يغلق عليه **أبا الحبيب** كل الأبواب قال :

- " **للضرورة أحكام**".

هو ذاك الرجل الذي يبدو أن يكرهه كراهة لا توصف.

سأله **سيدي الفاهم** يوماً عن سبب كراهته إياه، فعلل ذلك بأنفاسه الكريهة، إذ من فيه رائحة الخمر. وكان **بورون** كاذباً.

تثاءب **قاسم بن عدي**، ثم قام يودع المتسامرين. ما كاد يمر أمـام **أبا الحبيب** حذره هذا الأخير، واضعاً يده على الزجاجة : " رفقــاً بها ... **قد بلغ الســيل الــزبى** الباب، نظر إلى الرجل شزراً. أما هـو، فقـام ذاك، يتبع **قاسم بن عـدي**، ليــودع بــدوره السمار، ولتنتهي سهرته معهم.

تسلل الرفاق واحداً تلو آخر...

رفع **ســيدي الفــاهم** رأسه عن **ألف ليلة وليلة**. لم يبق في الغرفة إلا ثلاثة : **بورو**ن يغط في نوم عميق؛ وقد طغت موسيقى شـخيره على أرجـاء الغرفـة، يتبعها نخـير منكـر، ينبعث من أنف كفــارى ! وبــدا الجسم النحاسي كبغل منهوك، بعد كد يوم من العمــل، في **أنامر**، لقاء ألف فرنك ! لقد كان إلى ما قبل قليل، يحرك طـرفي أنفـه، إذا ما علته سـورة غضب، أو مسه ضيم، أو خاف.

وهــاهو قد هــدأ، إلا من نخـــير متواصلين، كنقنقة ضـفادع حـوض القريـة ! وضع الكتــاب في الــرف، ثم اتجه إلى النافــذة، مصــراعيها، فاصــطدم بأنفــاس صــبح زكيــة، المصــراعين برفــق، ثم تحــول إلى أبا الحــبيب، الشخص الثاني؛ وهو لا يزال مستغرقاً في تأملاته الخمرية، قال يخاطبه :

- سبحان الله **يا حبيب** !

- العفو "**سيدنا**" !

تثاءب، وبعد تردد قصير، قال :

- الجيوش تقتحم الباب !

- جيوش من ؟

رد عليه في تذمر :

- جيـــوش من ؟ جيـــوش **هرقل** سهام الضوء تطرد جحافل الليل يا غافل.

- إذن ؟ قال في تراخ.

- إذن، "**فلما أتى الصــباح، ســكتت شـهرزاد عن الكلام المبـاح** !". وأتى بكتـاب **ألف ليلة وليلة**، فقربه من عينيـــــه، انتهاء السمر، كما انتهت إحدى ليالي الكتاب. عند ذاك، قام يتخبط مترنحـاً معربـداً، يتلمس طريقه في خضم سكر ثقيل، رغم بزوغ نور الفجر.

7

مضى شهران على إقامته بين الأنامريين :

فترة الصباح يقضيها مع الزملاء الطلاب الذين بدأوا يتوافدون على القرية، يسبح معهم العين؛ ثم بعد الغداء، يقيل.

وفي الأصيل، يهبط منحدرات الواحة، صوب **تادينارت**، عله يرى صاحبته. لكن في آن، لم يرها إلا مشغولة عنه بصواحبها. اشتعلت في نفسه اللوعة متقدة. ازداد شوقاً إليها، ازدادت عنه تجاهلاً وتغافلاً؛ فلا هي كانت معه، ولا كانت عليه.

وفي المساء، يقضي سهرته بدار **سيدي الفاهم**.

تناول فطوره؛ وقد تنبه إلى الصينية كانت **زينة** قد وضعتها بين يديه منذ ربع ساعة !

هبط المنحدر، واستدار يميناً تلفه **أنامر** الملتوية، كأنها مسالك مدينة أثرية من القرون الوسطى.

وماهي إلا هنيهة، حتى اقترب معصرة !

تلقاه صاحبها على الباب هاشاً باشاً. أمره بالدخول : رحى حجرية ضخمة، قطرها لا مترين، ركبت على قاعدة حجرية، بدت له عجلة يمسكها محور خشبي ملتصق بعمود مثبت نفس القاعدة الحجرية، ومتعامد مع آخر، إلى داخل غرفة الاستخراج.

واستمر الثور المعصب العينين ويدور، جاراً المحور الخشبي؛ وجعجعة الرحى الحجرية: كغن ! كغن ! كغن ! تصك الآذان.

لما رأى الثور على حاله، من الدوران الرتيب، ذكره بأحد أرقاء الرومان يدفع محور رحى ما، بيديه؛ والجلاد في أثره.

قال صاحب المعصرة :

- هكذا نستخرج الزيت.

تقدمت **زينة**، فأفرغت سلة الدوم. سمع صاحب المعصرة يوضح :

- هذه هي السلة الثانية، أي أربعة أصوع.

- متى تستخرج الـزيت؟ مخاطبـاً صـاحب المعصرة:

- بعد العصر.

تــذكر صــاحبته، **وتادينــارت**، وتــزامن الأحداث، فقال مخاطباً أخته :

- عودي إلى الزيت بعد العصر.

صافح الرجل، ثم تركه. همس لأخته :

- اغسلي القميص الصيفي.

حــركت رأســها دلالة على تلبية رجعت إلى البيت، بينما سار اتجاه **العين**.

وكــانت الحــرارة قد اشــتدت وارتفعت درجتها بشكل لم يألفه في **الدار البيضاء**.

لما وصل، خلع ملابسه.

كــانت جــوانب **العين** غاصة بــالطلاب، وكانوا يتناوبون في السباحة واحداً تلو آخـر؛ ما انتهى أحــدهم، عــرض جســمه للشــمس، وسرعان ما يعود للماء؛ فـالجو جـاف، والقيظ اشتد.

انغمس بــــــدوره في الينبوع الذي انبثق من مغارة صخرية تفور مترقرقة. مياهٌ شفافة منعشة.

كان لا يزال يسبح حينما وقف عليه سرب من الفتيات تتقدمهن فتاة شابة، كلهن يحملن جراراً لملئها. وما أن رآهن الشبان، حتى أفسحوا لهن الطريق، ذهبوا بعيدين عنهن. وما كاد يراهن بدوره، حتى خرج من **العين**، ينفض عنه الماء. جرى يلف جسمه في منشفة، حمل معه ملابسه، مهرولاً يقتفي آثار لذاته، إلا أن صوتاً استوقفه :

- أوجدت انتعاشا في **العين** ؟

كانت صاحبة الحذاء المفقود. هي تماماً كما كان قد سمع صوتها في **تادينارت**. أحس بارتعاشة تداعب خاطره : لقد تحدثت إليه. يا مدت إليه يدها يقبلها !

قال؛ وقد ارتدى ملابسه تاركاً مفتوحاً :

- عفواً... أنا لا أستطيع تحمل الحرارة !

- أنت انعزالي، ضعيف، لا شيء، ولا أياً كان !

هكذا بدا ضعفه، أمام جبروت وإنسانه. إذا حسب نفسه جريئاً؛ فهي أجرأ منه في الأجوبة المفحمة، هي تعرف نقط كأنها تصفحته شعرة شعرة.

بحث لها عن رد لائق ...

لم يعد يعير البلاغة شأواً، تخلى عنها يلتمس المنطق؛ وأنى لهذا الأخير برقة العبارات، ولطائف الردود ؟

هيهات ! مشاعره العميقة فقط، تنير هذا السديم المحيط به، تكشف عن جدرانه، جديدة كانت أو مبتذلة، يقام لها وزن أم لا. لكنها تكشف عن أفق عظيم. يتبدى له في تناقضاته الحب، في الغيرة التي تعصف بكل شيء، فتحيله إلى هباء، ثم إلى لاشيء، إلى العدم.

أليس الشعراء أولى بالحب من المناطقة ؟

هو، ليس بشاعر **كبدر**؛ وإن كان له إلمام بفنون العرب؛ فهو إذن كالمسن، فعال، وليس منفعلاً.

استنجد بكل العلوم، لكنه لا يستطيع يطلع على كنه الناس إلا من وعبثاً تمتم، فشد أزرار قميصه :

- ليس لدي وقت لأتأقلم.

- أي إنك في حاجة إلى مزيد لتتحمل الغير.

ومرت الصواحب متتابعات أمامهما.

لماذا تشي صاحبته بكل شيء منذ ؟ مرور صواحبها بدون التفات أو توقف، هي بداية من التهكم، يشعر به إنسان مثله ضائع

سفح صخور شاهقة. إنه في فراغ قاتل، وإنه ليشـعر أن قلادة العـالم تنفـرط من بين أصـابعه، وتتبدد جواهرها في الهباء. ثم قال مسـتدركاً، أن شعر بخطورة تلك الجملة المنفلتة منه :

- أقصد أني في حاجة إلى تحمل جو البلدة.

ودون أن تكترث بجوابه، أنشـأت تقوله :

- لماذا تحملت هذه الوردة جمال البلـدة مشيرة إلى إحدى الورود النابتة أمام **العين**.

هنا، شعر بأنها في الطريق سائرة لتدوس ثقافته النظرية بقدمها. لا يدري من أين أتـاه الجـواب الارتجـالي، ولا من أين أتته تلك حينـذاك؛ فهو ليس ذلق اللسـان حينما قال :

- لقربها من **العين**، وبعدها عن الجفاف !

قـالت ببداهة لا تعـدمها أية أنـثى في جمالها :

- أما أنت؛ فقد انغمست في **العين**، وجسدك لم يجفف بعد.

ثم تركته وحيداً، ومضت لملء جرتها.

الصرح المعرفي يتهـدم، منطق **أرسـطو** يتبدد. ماذا ينفع كل ذلك أمام هذا الكـائن الأنثـوي ؟

خيل إليه أنه قادم من كوكب آخر، وأنه تائه في هـذا العـالم الغـريب الـذي يُكوِّنه وذراه، وسفوحه، ودوره المتناثرة هنا، وهناك، وإنسانه الهلامي، والأفكار غير المعقولة تحيط به. لماذا هذا البؤس اللاإنساني ؟ أليست الغيرة، والحيرة، وهذا التقزز، سوى طريق، واستدلال، نحو لاشيء ؟

وبـدت له تلك الهـوة الفاصـلة بينه غيره، حلقة مفرغة.

مرت أمامه حاملة جرتها، عائدة تتبختر في دلال :

- أما زلت هنا ؟

تلعثم لسـانه، خانه الجـواب؛ وقد متجهة نحو **أنوغراس**.

التحق ببقية الرفاق، فاتخذ له مكانا بينهم. كانوا جلوساً تحت ظلال كرمة يدارون بها الشمس، يتحدثون في مواضيع شتى.

(الوردة جميلة، لماذا تحملت جو البلدة أليس جميلاً أن يقترب من الآخـرين ؟ كيف حبه، ويفهم غيره؟ لو فهم الناس على حقيقتهم، لما ترك أباه يرهن أملاكه.. ! فإذا به قد أصبح فقيراً معدماً ! هذه فتاة دون مستواه ومعرفة تحطم كل ما بناه، فهي تقول له بفصيح

قول لا غموض فيه : أنت جاهل بعض الشيء، لمجرد أنك لا تشترك مع الآخرين).

تلك أعشاب أخرى، تتفاوت رائحتها الفواحة النافذة، وبين ما لا رائحة له مطلقاً، وتلك عين ماء، تكاد تنطبق عليها أوصاف **لافونتين** من حيث الشفافية والانتعاش، ولكن إحساسه يتجاوز ذلك، إلى حيث يتطابق خرير ورقرقته مع هبوب نسيم المساء، وألق النجوم والمذنبات، والكواكب المدارية. حتى الليل، عطره الخاص، ذلك العطر غير المستمد من الرياحين والأقاحي، وهو إلى ذلك، لا يستطيع يتجاهل كل ما حوله. فقط يكتفي بمعرفته، فكأن كل شيء يصرخ في وجهه : " من قال إنني أيها الغبي ؟".

هكذا تكشف عنه صاحبته الغطاء، شيئاً فشيئاً، فلينفذ بصره في الآفاق إن استطاع، وليمتط صاروخاً حديدياً، مركبة مصفحة القمر والنجوم ! لكن، أنى له ذلك ؟ بدا واضحاً.

كان لا يزال متكئاً على صخرة الوردة من بعيد...

لا شغل يشغل باله إلا صاحبته.

حول بصره عن الوردة، ألقى نظرة الطلاب. الكل يبدو عليه الانشراح والبشاشة. أما

هو؛ فقد استغرق في هموم قاتلة : " أبوك رهن كل أملاكه.

والأســـــرة تنتظر منك العمل براثن الفقر، والمجاعة المحققة ! عليك ألا تكترث !

وثلاث ســنوات في انتظــارك بالجامعــة. عليك ألا تكترث !

لن يـــؤدي الثمن إلا والـــدك المعـــوز. ما جـــدوى الامتلاك؛ والعــالم يتفتت بين أصــابعك "حـــــاول عبثـــاً أن يتغلب على ذلك الحلزوني المتجه إلى هــوة عميقة لا قــرار أما أملاك الأسرة؛ فتسترجع بالمال، وأمرها غير معقـد". وإن كـان يـدور في حلقة مفرغة بـدوره، وأما انتظـــار أســرته، أثنـــاء انعكافه على الحقوق، " فعلى هذه الأسرة بالصبر، كما صبرت قبل؛ وتلك أيضا حلقة مفرغة".

وأما الســـــنوات الثلاث في فسيقطعها بجده واجتهاده؛ وقد عرف بحبه للدراسة والبحث. ومع ذلـــك؛ فليس ثمة مؤكــد؛ وهو يلتقط المعــارف هنا وهنــاك، التحاقه بالجامعة. وأما صاحبته، الشـغل الشـاغل له، فهو ما لا يجد له حلاً... فلا مناص من حبها !

كل شـــيء له حـــل، وكل ما يستطيع فهمه، إلا النساء.غريب أمرهن !

وأغرب منه أمر صاحبته، حيث ينتهي كل شيء إلى تأويل، إلى مجاز، على صور وأطياف جميلة طريفة، إلى عدم اليقين : إلى طبيعة هذه البلدة في سفح الجبل، البربرية الحمراء. يمتد به الخيال، ويشتط التقدير !

أهذا ما يسمونه الحب ؟ ذلك النوراني الذي قذفت به العناية الإلهية في فترة مظلمة من تاريخ هذا الكون، فتلقفته النفوس الصافية تقتبس منه سراجاً ينير المسالك !

هو بدونها يتخبط خبط عشواء.

أين لذة الانتصار التي كان يشعر بها كان يخيل إليه أن صخور **الكست**؛ وهي الجامدة الصماء، هنأته ؟

هنأته على ماذا ؟ على هذه المعرفة-الحب ؟ على هذا الاكتشاف للعالم بالتناقضات ؟ لقد أذله ذلك الحب بما فيه الكفاية. حسبه ما يتخبط فيه من مشاكله !

ولأول مرة يناصر الذين يدعون الحجاب والعفة، ويود لو يجمع قيود نساء الحريم، فيضعها في يد **تعزة**.

بل يود لو كان عبداً بين يديها تفعل تشاء، دون قيد ولا شرط، عدا أن يكون بعيداً عن أنظار الفضوليين والمتطفلين.

بهذه السهولة باع حريته، بلا مساومة، بلا حرب، باعها مقدماً بلا طلب !

أليس الحب إلا سهاماً ترمى بها العاشقين؛ وهي عزيزة المنال، حتى تفقد جزءاً عظيماً من كبريائها ؟

ما باله يظل هكذا، مضطرب الخواطر، مبلبل الأفكار ؟ أما شعر باطمئنان؛ وقد من أنانيته ؟ صاحبته، لا يراها إلا نادراً، كنسمة لطيفة تهب بغتة على عالمه.

ليت له عملاً مثلها، ومثل الكادحين حتى يسبح في بيئتهم كالسمكة !

ليته كان شلحاً قحاً خالصاً يتقن **الشلوح** إتقاناً ! الشيء الذي يتقنه من لهجة قومه، لا يعدو أن يكون من الضروريات ينجده، عندما يتحدث إليهم، أو يطلب حاجته.

فمن هو بالنسبة لمن يحيطون به ؟

نظر إلى الطلاب المستظلين تحت الكرمة واحداً واحداً : **بدر** يكتب بالفرنسية. **قاسم بن عدي** يحادث تاجراً صفقة عقدها في الأسبوع المنصرم، شابان تاجران يتحدثان بدورهما عن أحواش جرى **تافرازت**، طالبان يتحدثان في أمر ما، وثلاثة آخرون يتحدثون عن الاكتشافات القطبية.

اقترب من التاجر الذي يحادثه **قاسم بن عدي**، حديث الواثق من نفسه، فسمعه يقول :

- المشروع الآن في طور التحضير... نحن في حاجة إلى سكرتير يتولى إدارة الشركة يسير كل شيء كما ينبغي.

ولما لمحه **قاسم بن عدي**، قال لصاحبه التاجر، مشيراً إليه :

- ما رأيك فيه ؟

هز التاجر حاجبيه، دلالة على عدم معرفته به، فانبرى **قاسم بن عدي** يقول :

- الأستاذ، رفيق الصبا، **ابن** بكالوريا عصرية.

- أهلاً وسهلاً. قال التاجر.

رد عليه :

- أهلاً

- كيف حال **السي فاتح** ؟

قبل أن يجيبه، سمع **قاسم بن** يستبقه إلى القول:

- رهن كل أملاكه من أجل هذا...

ألا ما أحقره !

لا مال ولا جاه، يحميه من لسان كصاحبه **قاسم بن عدي** !

قال التاجر : " إننا نتحدث عن مشروع شركة للبواكير والحوامض أنشــأناها في وقد نكون في حاجة إليك.

سكت، لم يجبه، كأنه لا يفهم شيئاً أو هو لا يريد الفهم مطلقــاً. ولما فطن **قاسم بن عـدي** إلى تردده، قال لصـاحبه التـاجر : سـأتولى تـدبير الأمر بنفسي، وسأقوم بشرحه للأستاذ.

أما التاجر فقد ودعهما سالكاً دربـاً ملتويـاً في الواحة.

8

دار **قاسم بن عدي** مبنية على الطراز الحديث، خلاف بيت **السي فاتح**.

دخلا صـــالون الضـــيوف ذا الســـجوف والســتائر المختــارة بــذوق رفيــع. في الوســط، مائدتان ذواتا شكل دائــري، وعلى أرضــية الغرفة ســجاد ثمين وُضع بشــكل منمــق. على جوانبــه، أرائك جلدية فوقها مساند حريرية خالصة.

وقبالة **قاسم بن عـــدي** جلس مركزاً عينيه في لوحتين فنيتين، إحداهما عبارة عن غانيــة- كما تقــول القصة الشــعبية- أيــام جلاء **البرتغال**، نســيت مشــطها الــذهبي في البلــدة، فطلبت من أهليهــا، أن يصــاحبها بعضــهم لأخــذه؛ وهم بعــد، على جبل **أيــاي**[5]، قد جُلــوا عن **الــوادي** نهائيــاً. حــاولوا إقناعها بتركــه، بعد استحال عليهم الرجوع، فما رضــخت لنصــيحتهم، بل رجتهم مــراراً أن يصــاحبوها حــتى لا أسيرة في أيدي الأهالي. ألحت، لكنهم رفضوا العودة. أخيراً، قررت الرجوع لأخذ مشطها، مهما

---

5 **- أيــاي، ربــوة جبلية على شــكل هــرم (غــرب ملتصقة بجبل الكست. تقول الحكايات الشعبية أن البرتغــال هربــوا عبرهــا، أيــام التعبئة المغربية حكمهم، أو قبلها، أيام وادي المخازن.**

كانت العواقب. أسرجت جوادها. وسارت بمفردها حتى ظفرت بالمشط الذهبي. وفي طريقها إلى قومها **بأياي**، دلت الأهالي العيون التي ختم عليها **البرتغال** بالطين، فتدفق الماء من كل عين تغرز فيها مشطها، ففُسح الطريق نحو قومها مقابل ذلك.

كان **أياي** شاهداً على تلك الغابرة في الأزمان :

أياي يروي تلك الرواية عن **الرمال**[6]، ما زال يحكي حكايته **بداخل الوادي**[7] **وتحت الرمال**[8]، يرويها للقرون والأجيال، يرويها على مر العصور، بينما الغانية البرتغالية قد نزلت من جوادها يحيط بها الأهالي.

كانت هنا وهناك قبائل يضطهد الاحتلال، تحكمها شرذمة من حكام أجانب، تحرم امتلاك سكين لقطع الباذنجان. الأهالي يحرثون فقط الأرض للأسياد الذين ضربوا في الآفاق، غزاة أو غجراً، يواصلون الاكتشاف في ليست لهم، أرض **البربر** الذين قهر قراصنتهم سفن الرومي التي تخرق مياه **المورو**.

---

6 - **فوق الرمال، إسم مكان، في ربوة أياي، تعريب عن أصله الأمازيغي أفلا- أوملال.**

7 - **داخل الوادي : اكنس- واسيف : قبيلة.**

8 - **تحت الرمال : دي ملالن اسمايون نزل فيها الشرفاء الركراكيون.**

حتى إذا جاء وقت الحصاد، استأذنوا الحكام، في استعمال مناجيل حصاد زرعهم. بيتوا أمرهم على التمـرد، وطـرد الأجسـام الغريبة هذه الأرض المباركة.

كـان العـدو منشـغلاً بكشط الأرض، تحصيل نتاجها الوفير، لتمويل مشاريعه المنجمية. إلا أن الأهـــالي هـــاجوا ومـــاجوا في منتفضـين، فانقضـوا على رقـاب الأعـداء من مكان، مما اضطر المحتلين إلى الفــرار، أن طمسوا مصادر المياه التي لا يعرف عنها أهــالي البلاد شـيئاً، وبعد أن طمسـوا المعـادن. الاحتلال، كان استعماراً تخريبياً متوحشاً.

كـانوا في الحقيقة أبطـالاً حينما أجهـزوا على المحتلين بمناجل صـدئة، فتحـررت الرمـال والجبال.

فر العــــدو من جبل **أيــــاي** الكًصور[9].

غـــــاب **قاسم بن عــــدي** المقابلة للصـالون، أما هو فظل يقلب بصـره اللوحة الثانية الــتي هي عبــارة عن ســفينة الطــراز القــديم، فــوق ظهرها خليط من

---

[9] **- الكصور : بناءات منتشرة في درعـة، وتطلق على الدوار الذي يحتوي على الكصور.**

ومسافرين : أهذا ما يسميه صاحبه فلسفة الجمع ؟ استفاق على صوته :

- ماذا تشرب يا أستاذ ؟

- الشاي.

غـاب **بن عدي** هنيهـة، عـاد بعـدها يحمل صينية بها إبريق وأكواب من البلور !

قــدم له قــدحاً. أخذ لنفسه قــدحاً ارتشف منه في دهاء :

- ذكرت لي أنك تواجه مصـاعب مادية حياتك ؟

- أجل. لا أزال أواجه الفقر؛ وأنت ترى من أمري ما ترى.

قال **قاسم بن عدي** في نـبرة تقريريـة؛ وقد تعمد أن يترك قليلا من الشاي في الكوب :

- ألم أقدم لك حلاً لمشاكلك ؟

- بلى، قلت المال مفتاح كل شيء.

ارتشف **قاسم بن عدي** جذبة من كوبـه، ثم أخذ يوضح :

- الحصــول على المــال، يكــون بشــتى الطرق.

سكت قليلاً ليستأنف :

- أنا لست أســتاذاً محاضــراً، ألقي على طالب، أنت أكثر مني ثقافة، وأغزر معرفة.

وقام مركزاً بصره بعيداً :

- لعل أقصر السبل للحصول على المال، التجارة.

تنهد يسترسل في كلامه :

- إني لأتأسف على كثير من الأوقات، ضيعته في تلقي المعادلات الرياضية ذات المجاهيل. وفي حياتي العملية، لم أستفد " الضرب"؛ فهو يختصر الطريق نحو الأرباح.

توقف هو، عن إتمام كأسه، مأخوذاً **قاسم بن عدي**، ثم انبرى هذا الأخير بالموضوع :

- ارتأيت أن تدير معنا شركة **البواكير والحوامض بأكادير**. وأكد مؤمنا على قوله :

- هذا العمل وحده، كاف أن وضعيتك.

- لكن لي اتجاهاً نحو القانون.

(ذلك جوابه النهائي).

تخلص منه **قاسم بن عدي**، كمن من مسؤولية:

- أنت المسؤول عن وضعيتك منذ اليوم !

قام يستأذنه في الانصراف، دون إتمام كوبه، فسايره **قاسم بن عدي** إلى الباب، ودعه.

وجد نفسه في حيص بيص؛ وهو يهبط المنحدر نحو الواحة :

أيتنكر للمعارف الجاهزة التي يؤمن بها، حتى تمر هذه الفترة العصيبة من حياته، وحـتى يعـرض نفسه لمحرقة من العصـور الوسـطى، فيكتفي بـالقول : إن لهـذا العـالم المعقـد، أبعاد فقـط، أو إن المقـولات العشـر، لا يصح إلا مقولة الكم، ومقولة الملك ؟

ابن المقفع، بحكمتـــه، ومسالمته، قطعوا لسانه. **ابن الخطيب** أحرقـوه، **أبو حيـان التوحيـدي**، ضـيقوا عليـه، فاضـطر إلى مسـايرتهم **بالإمتاع والمؤانسة** بيد أن حياتـك، ليست الآن عرضة للمخـاطر الحد أو ذاك : ليست هناك محرقة.

تـــرى، لمـــاذا يجعله **قاسم بن** يستشـعر مثل هـذا التنـاقض البـادي بين الأشياء في هذه البلدة، وبين البداهة الـتي تعصف بحب الحياة ؟

حقاً، إذا أحب **قاسم بن عدي** الحياة- على ما شاهده في اللوحتين الفنيـتين المعلقـتين في صـــالونه- عليه أن يتعامل معها ومشـروعية، حـتى يكـون صـادقاً مع نفسـه، الحياة، أي عليه أن يكون منطقياً حتى النهاية؛ وهـذا من المحـال. **سـان جوست**- وجه فتـاة وقلب أسد، الذي ظهر في ظل **روبيسبيير** جبار الثـورة- كـان يحمل معه تناقضـاته : خطيب

الاستبداد والقمع، ومدافع عن الإرهاب الثوري في ذات الـــــوقت، ثم بعد **روبيسـبيير**، ليقطع رأسـاهما بالمقصـلة. يا من مفارقة !

لولا ذلك المنطق الـذي تعـرض للاهـتزاز، لولا هذه المفارقـة، وذلك الإصـرار حـتى النهايـة، لولا كل ذلـك، ما لقيت تلك الأفكـار حتفهـا، عن معــنى مــا، في هــذه البداهة الفجــة، الغنائية العميقة للحياة والأنا.

تعب من الجولة في راجعاً إلى بيته.

9

كانت كالدرة يأخذ بريق جمالها بالأنظار، فـإن وجـدت في وسط **العـآمت**، لا تلبث طلعتها أن تظهر.

درة في سـفح جبل أشـم، في أعز لائق بمثيلاتها من الدرر النوادر.

والجبل المشـــمخر يضم قـــرى يقربها إلى هضـبات صـدره، فكأنه لا يحنو إلا صاحبته، وكأنه لا يضم إلا بيتها !

يا لها من درة قــذفت بها الأقــدار وسط أجمل مكان في **الجنوب** !

أما هــو؛ فطالما قـاوم الشـدائد والمحن صبر على نهشـات الطـوى المـبرح؛ وهو يومـذاك في شــقة **بالبيضاء**، في شــارع **فوكو**. فما إذن، يقف مكتوف اليدين أمام سهام حبها ؟

صـبر على نـوائب الـدهر، ولكنه ما عنها صبراً دقيقة واحدة.

ســرى حب في جوانحه كتــأثير ســيجارة تخدر حواسه، أول ما يدخن. أحس بنشاط وغرور كـدبيب المـدام في رؤوس المنتشـين، ثم ما

أن بدأ يطلبها ويستقصي أثرها. اندلعت في نفسه ثورة عارمـة، لـولا جـدران الكبت، وعـزة نفسـه، لأشفق عليه الناس حينما يسمعون انفجار براكين ثورته. إنه يشعر بـان الفرصة مواتية للخـروج هذا المناخ الخـانق، إلى منـاخ قدسي عصي الإدراك، وأحيانا يفضل البقـــاء في بوتقة على نفسه، باحثاً عن جوهرة الجواهر في مناخ خانق.

أذاك هو الحب ؟

لكن كيف الوصـــال ؟ هو كالســـمكة كالمحـارة، قـذفت به أمـواج المقـادير من **البيضاء** إلى **الجنوب**، إلى **أنامر** بالذات، إلى وسط غـير وسـطه تمامـاً كما قـذفت **بعم بوهو وأبا الحبيب**، وربما **ببورون**.

أيمكن أن تعيش السـمكة إلا منغمسة قعر البرك والوديان، بل في البحور ؟

وماهو بسمكة.

ليته كـــان جريد نخلـــة، يزهو كنخلة **بـــوتزدوا**- أم النحـــل- ينحـــني لصاحبته تارة، وتارة أخرى يتهادى مع النسيم مشـمخراً إلى السـماء، فتضـطر هي، رأسها، لتشاهد ذلك !

في خضم اليأس تبدو الحياة أجمل من ذي قبل، جديرة أن تعاش.

بيد أنه يوجد في بلدة منغلقة على نفسها. توجهاتــه، إنما تنبثق من أنانية ضــيقة تنطلق غيرية واسعة إلى المطلق، لتنشــغل بعد صياغة منطقها المنعزل، الذي يقف ضد التطور.

ماهو بسمكة !

هو إذن؛ شـــخص له عواطـــف، وعزيمة، وشعور، له دوافع وحوافز، فكيف يخضع لتسلطات الأقوياء؛ والبقـاء في هـذه القرية سطوة من يملك في حدود علاقات بين السيد والمسود؟

الحب يقربه من الآخرين حينما يطلبها، ويتعقب أخبارهـا؛ وما بــرح يشـعر بلـذة روحيـة. وذاك مـــالا ريب فيـــه؛ إذ لـــولا الحب، كالســـمكة، أو كالمحـــارة فعلاً... ويبعـــده الحب عن الآخـــرين، حينما تتـــأرجح في نــيران الغــيرة؛ فــإذا به ينــوء عنهم بوجهــه، بالاشمئزاز، ودلائل الإعراض، والنفـور، بادية على ملامحه !

لا ضـــير ! لقد قـــال كلمته من شعري : (العيش بعدكم عدم).

هاهو ذا يقـترب أيضا نحو الآخـرين، حياة جديدة. الآن يعيش العيش الوجود ! العيش المنفتح، حيث المتنفس، وحيث التأمل الممــزوج بالإنسـانية الـتي يتحقق وجودها في تجريد أفكـار

ملموسة، بدلاً من موجودات محصورة، معطلة عن أي عمـــل. فحبه حيـــاة؛ وهو واقع سـفح جبـل. إذن هو حقيقة من حقـائق الوجـود. لكنها حقيقة غير مطلقة.

لا عيب إذن، في هذا الوجود. إنما صاحبتْ تحـــركَ الإنســـان فيـــه، منذ ابتلاع **تفاحة** سلوكات أخرى ناجمة عن محـاولات متعـددة **الحلــول والاتحــاد**، فكأنما كــان **الإنســان** بطريقة ضمنية، يرفض **الخلود** !

تواردت على ذهنه هذه الخـواطر، منتشـياً من أطيافها؛ وهي التي ملكت عليه كل حواسه.

كان يسير بخطى مترددة نحو **تادينـارت** يسير، يمني نفسه برؤيتها.

أنى له الوصال ؟

ازدادت ثورته الداخلية انـدلاعاً حـتى إليه أن كل خطوة يرميها في أعقابها؛ وهو يقتفي أثرها، صدى هدير تلك الثورة العنيفة، وأن أنفاسه آهات مكلوم الجوى.

ليحث خطـاه نحو **العـآمت**، إذا كـان الحادث حقيقة واقعة !

فليتقدم !

وليطو فلــوات الهجــران، إن كــان هجران !

وليشخص ظل وحدته الموحش تشخيصاً عن طريق اتصاله بالآخرين !

لمــاذا يحرمــون في مجتمعه الحب؛ أكثر الأفعال براءة ؟

يســتهزئون بــالمحب، ولربما ينبذونه القذى من العين؛ في حين، يلتمسون للآثم الأفاك عـذراً، ويغضـون الأبصـار عن فعلتـه؛ وقد لا عليه باللائمة !

مـــاهي إلا دقـــائق، حـــتى **تادينارت** !

رنت في مسـمعيه موسـيقى تنـذر بالويل والثبـور، قـال في سـريرته : (حـذار من العيـون ترمقني).

" أي جريرة أتيت إذا أنت تقدمت بجراءة، فبادرت أفراد **العآمت** بالتحية، وخالطتهم تلقائياً، واندمجت معهم في أهوائهم وميولهم؟"

" أين خفة دمك ؟"

" أللهوى عوارض كجميع العلل ؟"

" ماهي ؟"

" أليس احمرار وجنتيك، والعرق المتصبب من جبينك، إلا من عوارض ما تورطت فيه ؟"

" يا للفضـــيحة، لو تكشـــفت للناظرين !"

" وهل تراها خفيت عليهم ؟"

" تخاف من الفضيحة، وفي عرفك أن المحب ليس منبوذاً ملعوناً. أي تناقض هـذا الـذي يهز أسس المفـاهيم حـتى يكـاد يقلع الراسيات في الأعماق ؟"

" تطلب الاجتمـاع بـالأفراد والأنـواع، وفي نفس الـوقت، تناشد العزلة تحت ظلال بعيداً عنهم !"

بنـدان متعارضـان ! يـنزع لكليهما عوامل خاصة، وفي ظروف خاصة، وما عدا ذلك، فهو ينزع للجماعة.

وإذ هو مستغرق في خواطره هذه، فتى يافع بالتحية، ورد عليه.

وسأله آخر :

- إلى أين ؟

تلعثم يغلبه الحياء :

- إلى الملعب.

انتظر من الشـاب أن يصـطحبه، سمعه يقول :

- طيب.

قالها للتخلص منـه. كـذلك كـان جـزاؤه حينما كذب.

جال ببصره في أنحاء **تادينارت** : الشبان يحتكرون اللقاءات، والمواعـد، كما يحتكر آبـاؤهم المواد الغذائية في **البيضاء**.

لاشيء تغير في البلدة، لا شيء.

يا ويــرزان، انبعث من رمــاد والقرون، كن وحشاً ضارياً يفرض وجوده بين الأدغال !

اغطبـقْ من رضاب الأصـيل أكؤسـاً تنعش بها صـــدرك الملتهب، لتهتـــدي المختارة. وتوخ الحذر، فهناك وحوش آدمية أخرى.

جماعــات هنا وهنــاك، وجــوه تطل الغصون... وآخرون عيون على غيرهم.

استرق السمع، فتقدم يخترق الأدغال.

رما بصره في كل الأنحاء.

أخيراً مـرت هنـاك دراجة على بعد قـريب من **تادينــارت** : ليست هنــاك ! لعلها حضــرت قبله، أو ستحضر بعد قليل، أو لن تحضر بتاتاً.

كي يصلح خطـأه، عَبَـرَ طريق السـيارات، وانحـــدر نحو **وادي أنيل**، في طريقه **آمالو- خفيس**.

10

- من بالباب ؟ قالت **زينة**؛ وهي تهبط الدرج. سمع صوتاً سرعان ما تذكره، إنه صـوتها، ما الـذي أتى بها في وقت متـأخر بعد المغـرب سمعها تقول لأخته :

- زينة أسرعي !

ثم سـمع انفتـاح البـاب، فـانتهى مسـمعيه وقع خطواتهمـا؛ وهما تصـعدان الـدرج معـاً. ما إن رأته حـتى بادرته : " أما زلت ابتلع ريقه من سؤالها المفاجئ، لتتدفق كلمات الفـرح من فمه :" كنت اليـوم في **تادينـارت** ولكنني لم أرك هناك !" واجهته، ولكن بوداعة : " هأنذا قد جئتك بنفسي".

ثم التفتت إلى أخته **زينة**، كأنها تعتـذر عن هـذا الاقتحـام الفجـائي، منتبهة لسانها، فأكدت لها : " يجب الحضور غـداً إلى **السي بلحسن**". ردت **زينة** أن ذلك كثيراً.

لقد جاءته بنفسها. وعندما انتهت الزيـارة، اندفع يضـيء لها بالمصـباح البطـاري، يهبط الدرج، حدثته على انفراد، كثر تهامسهما، اسـتطردت " أما زلت تسـأل عن اسـمي أجاب" الآن أحسن تهجيته".

عاتبته : " يا لك من عاق ! لماذا لم تسـأل عني أحداً كل هذه المدة ؟".

وكأنما يؤكد لها حبه حين أمسك بيدها قائلاً :" أنا غريب بين قومي".

وكأنما تريد بدورها أن تقطع تردده وحيرته : " اسأل عن **تعزة** من آل العطار، نلتقي في **أحواش**. " تهرب : " أنا لا لهجة قومي".

- ارقص وغن.

ثم ودعته.

" ارقص وغن" ؟ لا بأس. إنه فقير، ليشرب من قلل شمس **أنامر**، ويستظل بدوحة الواحات، يعبر **الوادي**، والجداول، يشارك ري الحقول، واقتطاف المحاصيل. ولكن والده رهن كل الأشجار والحقول، حتى نصيبه من الماء اليومي ! إنه ليس بضال رغم غربته.

سوف يعصر قرص الشمس، ويرتوي أشعتها على المدى البعيد. أذنت له بذلك، وحدثته مختفية وراء جبلِ **فوق الرمال** ! كذلك همست إليه النجوم والمذنبات البعيدة ! همس **النجم المداري**، أن **تادينارت** غير للخروج من القوقعة، همس إليه **السها** الأجواء البعيدة، البعيدة، والذي يصل ضوؤه ملايير السنين الضوئية ليضرب في عمق الظلمة الدامسة، أن على هذا المجتمع أن ينبذ عنه

التخلف، ولباس الخنوع، وأيضا، لباس المواضعات القبلية العقيمة.

سوف يرضع من حلمة الشمس الشمس، لبن مسقط رأسه، كما رضعت بلدته **أنامر** المشمسة العظيمة.

مازال طفلاً يهفو إلى حب الرضاع.

استفاق من أفكاره على صوت **زينة** أماه ! هذا كل ما احتلبت هذا المساء !"

نزر من الحليب، لأن البلدة تجرى البؤس، والكسل، والخضوع للأمر الواقع ...

تسير إلى لا هدف. لا أحد يكلف نفسه يرفع رأسه إلى عين الشمس، أو حديث **النجم المداري**، أو يهتدي حتى إلى طريق قويم وسط الأمواج، والهوات العميقة.

11

يدب نشاط عظيم في بلدة **أنامر** منذ أول زقزقة الطير، مرحبة بميلاد نور صبح إلى أن تودع مسحة من حمرة أصيل **داخل الوادي**. وقد يستمر هذا النشاط وقت متأخر من الليل إذا كانت بالمناسبة.

كانت الساعة حوالي الثامنة والنصف مساء، والنشاط مازال يدب في جميع أرجاء قرية **أنامر**.

يمم أهل القرى المجاورة، دار **بلحسن**. وفد على الدار المبنية بشكل عصري، حديث، أفواج من المهنئين والمهنئات، من القرى المجاورة، وريئت أنوار **لافاكوم** من بعيد، كأنها نيران القرى.

انتصب **السي بلحسن** بنفسه يستقبلهم، كلاً بما يليق بمقامه من ترحاب.

أخذ يسأل بين الآونة والأخرى، **بورون** عمن تخلف: هـــذا **أبا الحـــبيب** المنحـــني، وذاك **ســيدي الفــاهم** المتوسطة تخط شعيرات من الشيب رأسه، وآخرون، رجال ونساء، قدموا من قبائل شـتى أما هـو، فقد حضر بصـحبة والـده **السي فـاتح** وجلسا بين المدعوين.

غصت كل الغرف.

نــادى **بــورون** كــآخر إعلام له حضر، إلا بعض الشيوخ والعجائز الطاعنين في السن".

ثم أمــره **السي بلحسن**، أن يرسل من قعد به العذر عن الحضـور، نصـيبه من الوليمة.

وكــان صــاحب الــبيت قد تلقى أعــذارهم على لسان **بورون**، فتقبلها.

في زاوية من غرفة الطـــابق **ســيدي الفــاهم**، وبجانبه **قاسم بن** وشرذمة من ظرفاء القرية.

نصـبت الموائــد، عليها أشــهى الأطعمــة، وعقرت زجاجات المرطبات.

تقدم **عم بوهو**، لقد كـان آخر من حضــر، خلع نعليه، ثم أشار بعينيه إلى **بــورون**، فهم الأخــير، مغــزى الإشــارة، فقــدم إليه الطــاس

يغتسل. وما أن لمحه **قاسم بن عدي**، حتى هتف به :

- تفضل يا **عم بوهو** الحاضرين أولا.

رسم بيده دائرة في الهواء، علامة تحيته للجميع، فتقدم يتخذ مكانه حول المائدة يأكل عليها **قاسم بن عدي**.

وما لبث أن قال :

لا تأكلوا حتى تسمعوا ما يلي :

تعلقت به عيونهم، وكفت الأيدي عن تناول الطعام. قال : " عرس في **تامالوكت**، بعد غد".

" **سيدي الفاهم** ينشر مقالة يطالب فيها بتحرير المرأة السوسية".

ضجت الغرفة بالضحك !

تدخل **عم بوهو** قائلاً :

- السكوت ! كفوا أيديكم عن الأكل إليكم بقية " الخبر" :

" الأشجار لم تورق هذا العام في الجبل".

" ثمار أركان قليلة، وكلما سقطت جوزة، قرضها السنجاب".

انتقلت عدوى الضحك إلى بقية الغرف المتقابلة حينما قال أحد المدعوين، موجهاً إلى **عم بوهو** :

- وما لا تسرقه القوارض في البراري، يفسده الخنزير البري في أرضنا الندية.

وكــــأن **عم بوهو** قد انتهى سنفونيته، فقال في ظرافة:

- كلوا على بركة الله !

كـان **بورون** يسـير بين الصـفوف، يلـبي طلبــات الضــيوف. ولما فتح إحــدى زجاجــات المرطبـات، **لأبا الحبيب**، تعمد أن يلكـزه العبارة، إمعانا في الاستهانة به. " رفقاً بها قد **بلغ السيل الزبى !".**

خــرج الرجل الوقــور عن صــمته، أخيراً، قال بكل هدوء ساخراً من **بورون** :

- ما أشبه **زيداً بعمرو !.**

سرت النكتة في صـفوف المـدعوين، يسري التيار في الأسلاك الكهربائية، تغامزوا، وتهامسوا فيما بينهم، قال أحد الخبثاء :

- تجلد يا **أبا الحبيب !**

رد الرجل الوقور :

- للشامتين أمثالك.

أما **بورون** فقد انسحب يحمل معه أثقالاً من الغيظ للرجل ذي الظهر انهمك الحاضرون في التهام الطعام واحتسـاء المشروبات.

وحدك أنت الذي لا تلتهم بشهية، لا ابتسامة لك "المال مفتاح كل شيء !"

قد تكون جذور مثل هذا القول منطلقة من أسس حقيقية !

وكان أول من شعر بوجوده، عندما الغرفة المقابلة، **قاسم بن عدي** الذي رمقه بطرفي عينيه، فحصه من أخمص قدمه رأسه: الحذاء، هو هو، لم يبد له بعد، كما جاء به من **الدار البيضاء**، البنطال هو نفس البنطال، القميص الصيفي هو الجديد على ظهره.

سلم، وجلس بين الحضور. انهم الضيوف في الحديث عن **الكونغو** مشروع جماعة **أنامر** لشق طريق للسيارات فوق جبل **الكست** !!!

ولطالما شكا له والده الذي يجلس مع الكهول في الغرفة السفلى، عن تصرفات بعض الموسرين الذين يديرون مشروعات خيالية، يرهقون بنفقاتها ظهور القرويين البؤساء، والأرامل. وكان قد سمع أحد القرويين يقول لأحد الموسرين :

- رفقاً **بالأنامريين**.

أجابه هذا الأخير :

- اللين لا يناسب سلوك القوم.

ثم قال ثري آخر :

- نحن هنا لنقوم كل اعوجاج.

أحس أن هـذه الطائفة من المواطـنين، تســتند في تصــرفاتها إلا على مركز القبيلة، في مجتمع جد منغلق، في أرض محصورة، وأن أفكـار هـذه الطائفـة، تعمل خـارج التاريخ، وان تقاليدها مرتبطة بكيانها الذاتي، وأنها تجهل وجـــود حرية أخلاقيـــة، وبـــذلك الأفكار، ما يرتبط بانطوائية الأثرة، كما يتبدى في الغلو، لصيانة شرف القبيلة سطحياً، وإهمــال تربية أساســية تنمي قــدرات الفــرد في تطوره البيولوجي، وأن أباه؛ والحال هـذه، لكل استغلال.

عندئذ، شعر بالحنق، تكلم بجراءة كعادته :

- أتت (كناطح يوماً صخرة ليوهنها)

فأجابه الثري في غطرسة :

- وسندمرها بالديناميت.

- ولو أن في جبـاهكم قرونـاً من طين ؟

ثم أشــاح عنه بوجهــه، كــره مشــاركته الحديث، والرد عليه؛ وهو يسأله في هيئة موهوب لدني :

- ابن من أنت ؟

لم ير فائدة في جوابه؛ وقد شعر بغربة.

لم يجد العزاء إلا أن يمني نفسه بوجود **تعزة** في هذا الخضم الزاخر بشتى الوجوه.

مـــازال كســـمكة تـــرتطم في جـــوانب الأحــواض، لا قــرار لها بعــد ! ولاهي تعلم في تنغمس.

قال في قرارة نفسه : " كوميديا لا لها، يعيدون علينا نفس الأسطوانات : قد فهمناها، وهضمناها ! ".

لم ير في هـــذه البلـــدة، إلا شخصــية؛ وهي في معــزل شــبه تــام عن الحيــاة الحديثة. فمتى تصفو العلاقات بين أفرادها عن تضخيم الذات ؟

ومــاهي إلا بضع ســاعات، حــتى خــرجت **العآمت** إلى **ساحة الحوض** : خرجت زمرة من الشبان أولاً. أخـذوا يتسـللون من بين المـدعوين في الـــــــــدار، إلى أن الساحة، تكـونت حلقـات، ولكل جماعة رأيهـا، صارت الحلقات، حلقة واحدة. أخذ بعض الشــبان الجريـــئين يفـــرض رأيه حـــول رئاسة الفولكلورية، كل واحد يدعي أنه أهل لـذلك؛ تخلى أحـــدهم عن الرئاســـة، فما خجول.

عبثت الأصابع والأكف على الدفوف بنقرات، أوقدت النار لتسخينها كلما كانت دقاتها بكماء صامتة.

أمسى كل شيء رائعاً في **الحوض** : الظلام الكثيف، لهب النار المتقدة لتسخين الدفوف، نقرات الأصابع عليها، التي كأن نغماتها صوت قيثار وحشي شجي !

سُمعت دقات الدفوف والطبول من **السي بلحسن** كما سُمعت من القرى المجاورة، نهض جل المدعوين ينفض الوقار والهيبة؛ وقد حنوا جميعاً إلى الطرب، مما جعل أحدهم يقول مدارياً تهافته : " تعالوا، صنع **عآمت** هذا العصر !".

أجابه كهل آخر، نحّتْ بقايا وجنتيه، بوادر شيخوخة واهية قادمة : " ما أراهم إلا مهجنين، لقد طبعهم الغرب[10]بطابع رخو، مائع، لا أصالة فيه !

قهقه الجميع، ثم نهضوا يلبون الطرب !

انحدرت الفتيات بدورهن، ومن هن حكم الفتيات من النسوة اللائي ركبهن الطرب، وهؤلاء الأخريات، إما إنهن مطلقات،

---

[10] - **سبقت الإشارة إلى مفهومه.**

وإما بائرات، أو اللائي غاب عنهن أزواجهن، أو فقدوا سلطانهم عليهن.

كان الفضل في جمع هذا الحشد النسـائي الهائـل، يرجع **لتـاهرة**، زوجة **عم بوهو**، حركت المشاعر بلسانها.

ورغم كثافة الظلام؛ فقد تلألأت حلاهن الفضـية، فاختلط الحابل بالنابـل. وسـرعان تحلقن، ثم استهللن أهزوجتهن :

" تبرك يا قلبي،

تبركي يا عيني،

حتى ينتفي ادعاء،

أن المحب لم نره ولا رآنا...

والفضـل، لمن دعانـا، (إلى الحفل)

وهو السي بلحسن الـذي هو خاف (كأنه علم في رأسه نار).

إن راحته تفيض دنـانير، كما الينابيع..."

بالغن في الثناء، حتى خاطبنه :

" بأن من لا" أوبيل " له، لا نحبه".

ثم انتقلن إلى أن " **الطـرب الشريعة**، (ولا أرى فيه عيباً !)"

انتظمت رقصـاتهن مع دقـات الـدفوف والطبول، ودققن بنعالهن الأرض رقصاً، وتمـايلت

خصورهن تيهاً وطرباً ! واهتزت الأرداف ! وتحشرجت حلاهن على الصـدور، تأكيـداً للمـدح، حـتى خيل للسـامعين أن كل ما قيل ينطبق الممـــدوح، كفعل لفاعل حقيقي، وإخبـــار مطابق للواقع ! (وأن الإشـارة إلى ذلـك، مجـرد تنبيه).

جال ببصره مع العيون باحثاً عن الممدوح، وسـرعان ما تلألأت أسـنانه المعدنية في الظلام، وقد فغر فاه، إذ دلت أسـارير وجهه على انه المزيد من المدح، أو ربما من أجل هـذا "الطـرب الشعبي"، دعا أهل القبيلة كلهم، فشـعر بـالتقزز؛ وهو ينظر إلى **السي بلحسن** !

منحدر من قمم سلالة المجد ؟

قد يكون... لولا أنه كان يتاجر بــالخمر **الدار البيضاء**، إلى جانب المواد الغذائية، فجنى من عمله ذاك، أرباحاً مشوبة بـالحرام، لا يهمه سـيارة **أوبيل** ! وهـدم بنـاء، وإقامة بنـاء محله.

ثم أخذ **السي بلحسن** الحوض تيهاً وخيلاء. وما لبث أن ند عنه زعيق : " مرحى مرحى !".

رآه في هـذه الأثنـاء يفك عمامته البيضـاء، تقـدم بخطى وئيـدة نحو حلبة الـرقص، فأسـدلها على رؤوس الراقصات؛ وهن يرددن اللازمة تارة،

وتارة أخرى يسايرن الأنغام بمختلف ضروب الرقص السوسي.

شاهده يتقدم نحو **تعزة**، ليسوي العمامة المفكوكة على رأسها، هناك، شعر بالدماء في شرايينه، كاد ينهض من مكانه لينقض عليه، لكنه عدل عن ذلك، تحت دافع خفي. قال نفسه : " سليل الكلاب : لا فرق بينه وبين النادلين والنادلات، الذين يتلقون الندامى الحانات".

ذكره وجهه بهشاشتهم !

أخيراً، تنفس الصعداء، إذ غادر **بلحسن** حلبة الرقص، مفسحا المكان للراقصات.

تطلع مع المتفرجين والمتفرجات دلال الراقصت وغنجهن، وبين الفينة يهمس أحد الرئيسين إلى معجبته بكلمات غزلية، فترد عليه همساً، أو تبتسم.

كان أحد الرئيسين : **قاسم بن عدي** !

هاهي ذي الفرصة قد أتت ليختبرها للمرة ما قبل الأخيرة.

قبع مضطرب العواطف مع المتفرجين، بعد أن لم يجد صعوبة في التعرف إليها، بقامتها الرشيقة، ووجهها السافر، من بين الراقصات ليلاً. وقد كان **قاسم بن عدي** بدوره،

يبحث عنها، بعينين ظامئتين، لاشك أنه يريد أن يهمس إليها عن لواعج لوعته هو أيضا. رآه يحاول القرب منها، لكنها كانت تدور في حلقة مستمرة، كأفكاره هذه المفرغة المكررة...

نُقرت الدفوف مجدداً نقـرات أكـثر عنفـاً، وانســـجم الرئيســـان، ثم هـــدأت الدوران.

هنا، مال **قاسم بن عدي** نحوها، تفـرس في وجهها حتى كـاد يلمسـه، فهمس إليها بشـيء مـا. ردت بابتسـامة، إلا أن حلقة الـرقص، مـرة أخـرى، فـدارت معها فجـأة، بعد أن توقفها مع **قاسم**، فراغاً بينها وبين من تليها.

دبت الغيرة في صـدره، فنهض قبل انتهـاء الرقصـة. سـمع بعض النسـوة يعلقن على ذلـك؛ وهو ينحدر نحو داره : "إنهما متكافئان !! ".

إلا أنه عـــدل عن المضـــي، الحلبة، باندفاع جنوني، فاستخرج أخته.

تـوقفت الفتيـات عن الـرقص، لمح **تعزة** ترفع إليه نظـرات الاسـتعطاف، إلا أنه بها.

أنت تواجه وضعيتك وحدك.

ألم يتنصل منك صديقك **قاسم بن عدي** ؟

كن مسؤولاً عن الأحداث القادمة !

ثم استدار مصحوباً بأخته نحو المنحدر، إلى بيت والده أعلاه.

قـــال لهـــا؛ وهو يـــدرك أنه يكـــذب، الطريق إلى البيت :

- إنـــني متعب. ولهـــذا اســـتخرجتك الحلبة. الرقصة كانت ممتعة ! قالت.

- شيئاً ما، (يداري حاله).

- ألم " تعجبك " ؟

هز كتفيه تنصـلاً من سـؤالها، ثم قـال لأي :

- لم تعجبني كثيراً.

من الأفضـل، أن يغـادر سـاحة **أحـواش** مادامت الغيرة تحركت في قلبه بهذا الشكل. من الخير أن ينعزل في بيته على الأقل، حتى الصباح. لم يكن له طموح في مستوى مواجهة فولكلورية أو اثنوغرافية.

أين الحقيقة من الخيال في كل ذلك ؟ هل يصـــدق عينه أو يكـــذبها، يلـــوم نفســـه، الآخرين؟

يا له من انزعاج !

حاول أن يضع نفسه في مكـان أي بل في مكـــان أية راقصة : " الطـــرب الشريعة، (ولا أرى فيه عيبا)"، قول تــبريري إلا، للترفيه والـترويح عن المـرأة الـتي خُتم

في قمقم من التقاليد. حاول أن يجد تبريراً من عنـده لما شـاهد. غـير أنه عجز عن ذلـك. اجتاحه شعور غامض، إذ لم يستطع دخول حلبة الـرقص، والوقوف وجهاً لوجه، مع الراقصات **والريوس**.

بـدا له كل شـيء تلك الليلة غـير فالنساء اللائي يتظاهرن بالحشمة محجبة وجـوههن **بـأغنبور**، تحللن من كل شـيء **أحـواش** عن طريق اهـتزاز أردافهن ونهـودهن، وأصواتهن التي كانت تعد عـورة قبل قليـل. إنهن ينشـدن الحب مثله بـأي ثمن، لقد تحـررن من سطوة الموانع.

اتجه نحو غرفة النـوم. وفي سـرعة، ملابسه، ثم اضطجع فوق سـريره. ما الـذي من أن يتحرر بدوره؟

ألأنه وقع تحت تـأثير نوسـتالجيا تعـود القهقرى إلى الطفولة. كـانت موسـيقى الطـرب الشعبي لا تزال تتناهى إلى مسمعيه.

ومضت سـاعات لم يغمض له حتى بعد أن هدأ الرقص.

12

استيقظ؛ وقد مالت الشمس إلى كبد السماء، لا يدري متى نام الليلة الماضية بالضبط.

اغتسل، وارتدى ملابسه. وفي سرعة، تناول فطوره في المطبخ.

لا أحد في الدار : أبوه ذهب ضيعة **بتافراوت**. والدته خرجت تحتطب مع أخته. نزل الدرج، فشعر بتثاقل.

وفي طريقه، صادف أمه وأخته عائدتين من الجبل، قال لهما:

- إنني ذاهب إلى **تافراوت** لقضاء أسبوع هناك، عند أحد الأصدقاء الطلاب.

قالتا بصوت واحد : " أسبوع كامل ؟" أومأ برأسه : "أن نعم".

وكثيراً ما كان يتبادل الزيارات أصدقائه من غير أبناء الدوار؛ فهو يعتبر من خرجوا على نهجهم بعد أن لاك **قاسم بن عدي** سمعته كشاب غريب شاذ، وبعد أن

عنه **تاهرة** زوجة **عم بوهو** : " إنه سيتزوج فرنسية صحبته بعد وصوله". تلك كانت تأويلات **تاهرة**، وتعلل ما ذهبت إليه : " إنما صاحبته إلى **أنامر**، قصد التعرف عليه كاملاً ".

كان ذلك، استنتاجها بالنسبة لامرأة تعيش في بلدة مهمشة، محصورة بين هضاب والواحات. وحتى الأصيل يأتيها متأخراً، كأنما تأبى الشمس أن تغرب عنها. ومع ذلك، يعيش سكانها خارج التاريخ.

ذلك كان منتهى استقرائها بالنسبة لامرأة لا تعبر عن كل رغباتها، إلا همساً أو وراء شأن العديد من النساء مثيلاتها؛ فالبلدة، لا تعبر عن نفسها إلا في **أحواش** المناسبات، زيارات تقوم بها السلطات المحلية في المناسبات الوطنية للتنفيس عن الموظفين.

لم يتغير شيء في **أنامر**... لا معبد، ولا مساعدات للسكان المعوزين للبقاء في أرضهم، والحد من الهجرة القروية للتخفيف على المدن.

سار في الطريق اتجاه **أنيل** باشتداد القيظ عليه؛ وهو ينعطف منحدر **تِيسْقِي**. استظل بظلال زيتونة حتى كان في مخرج طريق **أنيل**.

أنيل ! قرية غمست أقدامها في الطين الأحمر، تسبح في مياه العيون المانعة. **أنيل** عين جارية بالدماء، مناصرات شخصية، ثأر قبلي، واستعداد للأسوإ في حال المس بالطوطم. سيطرة على الري لفرد إقطاعي في الوسيط. لا أحد يستطيع مشاركته فيه. **أنيل، عروس الشعر** الحسناء، قلعة مانعة !

مرت سيارتان في الطريق، تنقلاه، فلا هو عمد إلى طريق " أطو سطوب !"، ولا صاحباهما توقفا. ثم مرت سيارة **قاسم عدي**. ولما اقترب منه، تعمد زيادة سرعتها ليوهمه بعدم رؤيته.

لما كان **بإغالن**، توقفت سيارة **تونيس**"، فأشار إليه صاحبها بالصعود، فالتحق به شاكراً إياه.

سأله صاحب السيارة :

- إلى أين ؟

- إلى **تافراوت**.

- تفضل.

فتح الباب، كان يلهث من فرط الإعياء، ثم انطلقت السيارة تنهب طريق **وادي أملن** اتجاه أعلاه- **أفلا- واسيف**.

13

الجنس الآخر يملك إرادة حديدية أشد صلابة من الرجل؛ وإن بدا أحياناً مائعاً، سهلاً؛ فما ذاك، إلا ليزيح الستار عن أنوثته، ذلك الجانب الإنساني الهام، وهو أيضا يعد، بحق، سلاحاً تلقائياً لقلب الرجل الضحية.

كانت **تعزة** تخفي هذا السلاح الثاني، الذي ليس إلا إرادة قوية. ومع ذلك، استطاعت أن تتعلم عادات القرية، بعد أن تركها والدها **أنامر** تحت إمرة جدتها.

لم تبد زوجته أي اعتراض. أتقنت **تعزة** أعمال البنات القرويات : تعلمت كيف تكـرر أركـان، وكيف تطحن آملـوه[11] في رحى حجريـة، تحلب البقرة، تحتطب، إلى غير ذلك من الأعمـال والمهام.

ولهذا، ترك لها العنان، تفعل ما تشـاء محاسب أو رقيب. كانت تعتقد أن إتقان الأعمال، والمهارات، يؤدي حتماً إلى تحريرها بطريقة مباشـرة، لأن القيـام بتلك الأعمـال، لا مسؤولية؛ وحتى يكون ذلك مطابقا لجنسها- تامغـارت- شـيخة، أي سـيدة، سـادت بأعمالها وبمسؤولياتها الجسيمة.

وكانت تقول، إذا ما انتقدت سلوكها إحدى النسوة المحافظات " كل واحدة حارسة نفسـها، بصيرة بالعواقب، فأنا في غير حاجة إلى شـرطي سري يتعقبني".

هكذا ألجمت أفواه الواشين والفضـوليين، إذ جعلت جمالها في يـد، سـلاحاً للفتك بـالقلوب، ولسانها في يد أخرى، معولاً لهدم آراء الخصـوم، فسفهت الأقوال، وانتصرت على كل عقبة كـأداء. علاوة على ذلـك، اكتسـبت نوعـاً والاحـترام بين العـوام. فما من حفلـة،

---

[11] **- نتاج اللـوز الممـزوج بـالزيت ونحـوه بعد طحنه بـرحى حجرية يدوية، وبعد أن يحمص اللوز..**

حضرتها، ولا من عرس، إلا تصدرت موكبه ! فغدت بين فتيات القبيلة، كوكباً لامعـاً يتلألأ يتهادى مع أنغام الموسيقى الفولكلورية. فما تكاد تظهر بين صواحبها، حتى تتجه إليها العين وحـدها، فكأنها شـــمس **النابغة** " **إذا منهن كوكب** ! ".

لكن...

لم ينفع السـلاح الأول الـذي هو الجمـال، فلجـأت إلى السـلاح الثـاني الـذي هو اسـتنجدت بتلك القـوة الكامنة في كشـرت عن أنيابهـا، بـدا وجهها مخيفـاً، عبوسـاً كوجه لبؤة !

ومع ذلـك، يرسم بتكشـيرته، وعبوسـه، وشراسـته، جمـالاً روحانيـاً آخـر، غـير الجمـال الجسدي، جمال قوة كامنة وراء الجسد وتوابعـه، في انتظام وتناسق غامضين.

إلا أن العقبة الـتي واجهتها لأول مـرة أيام بهجتها الـتي تعيشـها في **أنـامر**، تكمن كيف تتصرف أمام إعراضه، إذ تجاهلها في حفلة **السي بلحسن**، وكـانت تتسـاءل: " ما الـداعي إلى ذلك ؟" وما الـداعي إلى إخـراج حلقة **أحواش** ؟

" أهو تعلقه بمدموازيل **بوديه** ؟"

أطرقت إلى الأرض برأسها واجمة.

لا مفر لها أن تغدو فريسة لمثل هذه الحقــائق الملموســة. لا أحد ينكر ذلــك، تستطيع بدهائها أن تتخلص منها.

تكاد تعطيه نفسها حينما تصـرفت بطريقة عبثيــة، لتجد شـفتيها تحت تصـرف شـفتيه؛ التي ورطت نفسها حينما صنعت عالماً غرامیــاً فكــاك منــه، عالمــاً يلغي كل ما عـــداه، المنطق الســائد، فهي الـــتي منحتنه يستحق؛ وتحاول الآن التخلص منه أو سحقه عن طريق إثارة غيرته.

بعد قليــل، دلفت إلى الواحة تحمل الدوم، في خطى مسرعة كالمجنونة :

وفي الطريق، خطرت لها فكـرة : سـوف ترقع ما مزقه الحب، وتــرد إلى نفســها الاعتبــار. وإنها لقلقة تجاه تحدياته.

ســـيطرت عليها ظلمـــات من والاحتجاج.

ولأول مـــرة تجد نفســـها تقف ضد **أرســطو طــاليس**، وتتشــبث بالمفارقــات... فتنجـذب إلى دوامة من الأفكـار اللامجديـة، حاولت التخلص من العالم الذي صنعته.

سوف تجده هناك...

تحاول عبثاً أن تقنع نفساً تائهة.

اجتازت بعصبية طريقها في منحدر نحو **تادينــارت**، مخلفة وراءها ثلاث نســوة تشعر بوجودهن. إلا أنهن بادرنها قائلات:

- **تعزة** ! إلى أين المسير ؟

انتبهت حواســها المخــدرة بخيــارات الحب،ثم التفتت إليهن قائلة:

- معذرة، أنا مشغولة بجمع حشائش !

لقد عـرفتهن، إنهن جـارات لهـا، وشـجت بينها وبينهن، أواصر الصـداقة؛ وإن كن أصـلاً قرى مختلفة، لا صـلة لهن **بأنـامر**، إلا عن اتخاذهن أزواجاً **لأنامريين** !

حاولن أن يتبسطن معها في الحديث، غير أنها تملصت منهن بكيفية لائقة.

وماهي إلا دقائق، حتى كانت أمام الزيتونة الـتي شـاهدت بداية حبهـا. لقد عـانت من فـرط وجد، وشدة التياع ! ... كانت خالية !

مضت الدقائق طوالاً كالساعات.

الانتظار !

وتحـوم حـول الخمائل حـيرى كالظبيـة، عيناها متعبتان.

الانتظار ... إلى متى ؟

كل ذلك هين ! الإحجام عنه دونه الموت !

ما طرق اليأس قلبها.

إن تعبت العيون، وكلت الأعضاء الأخرى؛
فما زاغ الفؤاد عن مبتغاه، ولا زعزعت الصعاب، إرادة قوية.

ليس الحل أن تتخلص من غرامها،
أن تعيشه بكيفية تمردية على وبإصرار.

ترقبت قدومه بين الأشجار. كل تحرك، إلا ورفعت بصرها إليه تحسبه ضالتها !

بحثت عنه بعينيها، هنا، وهناك؛ والشمس تسحب آخر أذيالها نحو الغروب.

انتهى إلى مسمعها تخبط خطوات تنحدر نحوها. رفعت بصرها في التياع : " آه ! أهذه أنت؟"

كانت **زينة** !

زالت الكآبة من جبينها المشرق الوضاء، هشت إليها ضاحكة المحيا. وقبل أن تسألها، قالت **زينة** :

- لم يخرج أحد اليوم، تعبوا من سهرة **السي بلحسن**. أنا إنما جئت أبحث عن حشائش
- كيف حال السيدة **ماماس** ؟
- بخير. قالت **زينة**.
- وأخوك ؟

تنهدت :

- آه ! سافر إلى **تافراوت** لقضاء أسبوع عند أحد أصدقائه.

واحسرتاه ! ابتعد عن القرية العابثة أمــام تصـــــرفها الملحـــــوظ أمس، في **بلحسن**.

عـــادت الكآبة من جديـــد، إلى فأمسى مظلماً كحجر **الكست** في الليل !

أطــرقت إلى الأرض واجمــة، بينما **زينة** فريسة لهواجس قاتلة. لكن الإرادة أقوى من أن تستسلم للخيال. بل تفتق ذهنها عن فكرة لم تخطر لها بالبـــال، منذ أن ســـايرت الأعــراس، وتصــدرت حفلات الــرقص الشـعبي لتزهدْ عن العبث الصبياني، أو ترتمي في أحضـان الآخـــرين المتلهفين، المتهـــافتين عليهـــا؛ أكثرهم !

صـــرخ في أعماقها صـــوت على المفارقات : كفى عبثاً ! " إلا أن ذلك الصوت هو نفسه صوت عبثي !

أتكون هـدف الطـامعين، وبغية المتلهفين، تترامى نظرات إعجابهم عليها حرى، تتكسر تحت قــدميها، ضــارعة : " أن ارحمي ! " فبمقــدار تبحث عن جاذبية المعقول، بمقدار ما تفقدها.

لا... إن هم إلا كلاب يبصبصون لها :

حتى الكلاب إذا رأت ذابزة

أصغت إليه وحركت أذنابها !

أما هي؛ فلم تكن ذات بـزة وحسـب، ذات جمال أخاذ ! فما بالك بعيون الناهمين تتطلع إلى جمالها البـاهر ؟ فلا يكـاد هـؤلاء ينفـذون إلى أعماقها سـوى شـاب واحد منهم، وهو بغيتها، ومناط آمالها ! غير معقول !

أخـيراً، لها أن تعيش مع أفعـوان تقـترب من هـذين الاثـنين : **قاسم بن** وزوجة الأب !

لن يـتردد والـدها في قبوله بعلاً لهـا، يزيح عن كاهله، مسـؤولية رعايتهـا. غـير معقـول أبداً !

لهذا، التفتت إليه مبتسمة، تتفادى غضـبه، كما ابتسمت له في حفلة الرقص، إذ قالت له في همس :

- يجب أن تسـلك معي مسـلكاً غـير إني لست سافلة.

ابتسم حتى انفرجت أسارير وجهـه، ظانـاً أنه يتلقى عتاب حسناء.

- سأصـلح هفـوتي بهدية تليق المدموازيل. حينئذ، شعرت بالحرج، ثم بادرت لتقطع آخر خيط يربط طريقه بطريقها؛ فقالت :

- إذا أردت إرضاء المدموازيل؛ فعليك أن تمسك هديتك.

- سأحتفظ بها إلى أن ...

- إلى متى ؟ تكلم ! – قالت بحدة.

- إلى حين إعلان الخطوبة !

- مسكين ! ابحث عن غيري، أفهمت ؟

وأخرجت لسانها استهزاء وتحقيراً له؛ وقد شارفت إلى باب دارها، بينما استدار هو، المرسيديس، فأدار محركها، ثم انطلقت مروج الواحة تلفها الأدغال، فلم لمحركها إلا هديراً متقطعاً، وأنينا ضعيفاً !

14

انتصف النهار حينما أخذت سيارة تكابد الطريق العمومي متأوهة مترنحة؛ وقد شارفت **تيسقي**، لتنعطف متجهة نحو **أنامر**.

توقفت في ساحة الحوض.

هرول القرويون والقرويات لاستقبال المسافرين الاثنين اللذين وصلا أخيراً إلى **أنامر**؛ كانا **السي** **حمو** من **عيشة** !

نودي على **تعزة**، فأسرعت مقبلة. اندفعت تخترق صفوف المهنئين والمهنئات

أن وجدت نفسها بين يدي والدها الذي وصل بعد غيبة أزيد من عامين !

لم تشعر إلا وقد انكبت على يده تقبلها.

اغـــرورقت عيناها بـــدموع الفـــرح اتجهت إلى **عيشة**، البــــديل الوحيد المتوفاة منذ عامين على إثر مرض عضال.

لم تستطع **تعزة** إتمـام تعليمها الإعـدادي بكـوليج **مـيرس السـلطان بالبيضـاء**، لرواية حبكتها **عيشة**، مفادها : أنها رأتها مع " واحد من الشـــبان" تكلمـــه، قصـــدقها **السي حمو** سرعة؛ وسحابة حزن على والـدتها لم تنقشع من جبينها، حتى إن ذلك الحـزن شـغلها يومـذاك، عن إخبار والدها بحقيقة زوجته التي كـانت أمامها عيانـــا. إلا أنها آثـــرت الابتعـــاد وزوجته، وهو الذي يرى السعادة كل السعادة في جبينها رغم تفاوت السن بينهما.

مـــــدت إليها **عيشة** راحتها وكبرياء، انحنت تقبلها، أشارت المرأة بيدها بما يدل على وجوب حمل كل الأمتعة، قائلة :

- عليك بهذه الأمتعة !

أمر مختصـــر ! لكنه يـــبين عن مطلقة تلغي حريتها بمجرد عبارة محدودة.

كيف ضحت بذلك العماء الذي كانت تسبح فيه، وبتلك الفوضى التي تمارسها إلى حين، كيف

تخلت عن ذلك؛ وهي تقبل يد **عيشة**، وتنطاع لتنفيذ أمرها بـالحرف؟ تـوقفت دون أن تمد إلى الأمتعة.

أمر مختصـر... بينما انهمك الفلاحـون إنزال الأمتعة والحقائب. **السي حمو** مازال يجيب عن أســـــئلتهم فيما المغتربين.

عادت تنفذ أمرها رغم أنها تجاهلته بعد لأي ...

انحنت على الحقيبة الأولى، فحملتها إلى سـلة الـدوم المبطنة بجلد غـزال، ثم اتجهت إلى البيت كأية فلاحة شغيلة.

بعد ربع سـاعة، عـادت لتلتقي في طريقها **بعيشة** تتجه بدورها نحو البيت، فحذرتها :

- إياك أن تنسي رزمة واحدة !

كـان والـدها مـازال متكئـاً على سيارته، يحادثه **قاسم بن عدي**. شعرت بالمخـاوف تحـوم حـول قلبهـا، تصـنعت المبالاة. ولما مضى **قاسم بن عدي**، همت أن تسـأل والـدها عما دار بينهمـا، لكنها عـدلت ذلك.

ثم أخذ والـــدها بـــدوره طريقه المنحدر نحو البيت.

كانت تلهث من جراء صعود ذلك المنحدر نفسه، إذ أخذ منها الإعياء مأخذه.

بمجـرد صـعود والـدها إلى الـبيت، أخـذت النسوة يتسـللن نحوهـا، يسـتوقفنها سـائلات صحة **عيشة**. إلا أن حديثهن، أخذ يتشعب : كثرت التعاليق، والتساؤلات، حـول السـبب الـذي من أجله قـــدم **السي حمو**، أهو للاستجمام والراحة. أخذ التساؤل يتزايد، يضاف إليه إفادات... إلى أن اسـتقرت الإشـاعة تحديـداً على **قاسم بن عـدي** ! الــذي ريئ بعد يحادث **السي حمو**.

في خضم هذه التسـاؤلات، شـقت سـيارة أخـرى طريقها نحو سـاحة الحـوض، ثم تـوقفت بعيداً عن سيارة **السي حمو**. كالعـادة، انـدفعت هي مع القرويـات، نحوها في تـرقب واسـتطلاع، كن يضربن الحجاب **بأغنبور**.

وما أن انفتحت الأبواب، حـتى نـزل الأوروبيون، واحدا تلو آخر، ومعهم **عبد المالك**، ومدموازيل **بوديه**.

كـان الركـاب السـتة الآخـرون رجـالاً مختلف الأجناس، يصوِّبون كاميراتهم نحو قلاع دور **أنـــامر** المطلة على الحـــوض شـــاعري، حينما انـــدفعت مـــدموازيل بجراءة، وبشيء من الفضول، نحو القرويات

الملثمات، اللائي يبدون بملاحفهن السود، كغربان ضخمة نزلت من كوكب آخر؛ فأزاحت طرفي رداء **أغنبور**، عن وجه واحدة منهن، فإذا بها وجه ذميم، وعينين عشواوين !

سمعتها **تعزة** تقول بتهكم؛ وقد تحول فضولها إلى شبه اقتناع، موجهة خطابها إلى **المالك**:

- خير لهن أن يفرطن في الحجاب، إن هن جميعاً على مثل هذه الحال !

وتركت طرفي الرداء، تستردهما صاحبتهما كما كانا.

وكانت القروية تتمتم بكلمات مفهومة، محتجة على تدخل هذا الكائن الطارئ فيما لا يعنيه.

وكان أي تحد من هذا النوع، كافياً يجعل الملثمات كلهن، يسفرن عن وجوههن أمام السياح الذين علت ضحكاتهم **مدموازيل بوديه**. ولكنهن لم يكتشفن تعليقها.

في هذه الأثناء، التقطت المسامع صوتاً رقيقاً، يقول بفرنسية طليقة سليمة :

- أسألك بدوري : هل تعيد لها الأصباغ طراوة الصبا، وسلامة الحواس ؟

ثم أضافت **تعزة** :

- ما ترينها تفعل لو كانت من سافرات الوجوه الأوروبيات ؟

توقفوا فجأة، اشرأبت أعناقهم إليها، وبدت لهم في ثوبها البربري، كفتاة من بنات روما الغابرات.

قالت مدموازيل **بوديه** بكل برود :

- أنت تحسنين الفرنسية.

ثم عادت تسألها :

- لماذا تستعمل رفيقاتك الحجاب ؟

- الحجاب مرتبط بمقومات هذه البلدة.

تجاهلت **مدموازيل بوديه** قولها. ثم سمعتها تقول :

- نحن شعب، يحب الحياة، بالجمال تمسكه بالقيم !

هي تعلم أنها تبالغ في ذلك. وخيالياً، هناك تقاليد تسيطر على هذا المجتمع الذي يعيش حيز جبلي ضيق. هي تعلم أن أولئك يجهلن الحرية الأخلاقية، وأن هناك انطوائية، وغيرة كاذبة على الأخلاق. هي تعلم أن الأمازيغية ظلت تبحث قروناً عن سادت امبراطورة، وبعد أن أنجبت أبطالاً ساهموا في الفتوحات بشكل مجيد.

ثم التفتت وراءها، فإذا بها واحدة من القرويات الملثمات !

لكنها فقط رأت الإعجاب بادياً على ملامح **عبد المالك**. لم تجد مهرباً سوى أن تقارن البادية بالمدينة :

- أين العمارات الشواهق في المدن، قمم **الكست**، وهي تشمخر إلى عنان السماء، تتحدى الأزمان والعصور ؟

وأضافت :

- أين دخان القاطرات، والشاحنات، وأنفاس أنابيب القاذورات، من روائح الأعشاب العطرة ؟

عقب عليها رجل سويسري :

- نحن نشاطرك هذا الرأي، لكن في المدن جميلات مثلك، يا صغيرتي ؟

طابت نفسها إلى ثناء السويسري فأجابته :

- بلى. ولكن شاعراً عربياً قال منذ أكثر من ألف عام :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب !

قال آخر :

- إذن نقيم في بلدتكم لنكتشف كالذي رأيناه !

خالفه **عبد المالك** :

- **أنامر**، بلد الجمال، والسلام، ترحب بالضيوف !

- وإن كانوا من صنف **مدموازيل بوديه.**

قال ثالث.

- تماما، لا يهم. قـالت **تعـزة**. وقد رمقتها **بوديه** بنظرة عاتبة.

انصـرف السـياح نحو الحـوض ضـاحكين، بينما ذهبت هي صـــــــــحبة الحقائب.

ولما همت بحملهـــــــــــا، استغراب.

عضت أناملها كأنها أتت أمــــــراً فاستدركت :

- وصلت أسرة والدي !

- الحمد لله.

وكأنها تريد أن تنبهه إلى وضعيتها الجديدة، فقالت

- علي أن أحمل كل هـذه الأمتعة وحـدي، هناك في البيت أشغال أخرى.

والمفارقـــة، أن السوســـية تفـــرض نفسها تلقائياً أشغالاً ومهارات حاذقة، معتقدة أن ذلك يحررها من ربق العبودية. وإلا، فهي تتخــوف أن تصبح، نظرا لطبيعتها، جارية آبقــة، يُبحث في كل مكان، لترد إلى الأغلال من جديـد ! لمـاذا

كذبت؛ والحال هذه، على **بوديه** ؟ هل تستحق النساء تمجيداً أكثر من تمجيد تلك التي تسعى لتحريرهن من سيطرة التقاليد ؟ فلتحرر نفسها أولاً. ومن ثم، اختارت طريق الحب، والتعبير إرادتها الحقيقية، مهما ادعت أمام **بوديه**.

لما رآها على تلك الحال أشفق عليها دعيني أساعدك !".

عادت تعض بنانها حذرة، ثم قالت في رقة :

- الرقيب في البيت !

تساءل بعينين حائرتين، ثم أجابته؛ أدركت مغزى تساؤله:

- سأشرح لك الموضوع فيما بعد.

- لابد أن أساعدك في حمل الأمتعة.

- اترك ذلك حتى أبتعد عن ساحة الحوض (قالت حذرة).

لما مضت، انكب على رزمة وحقيبة، حمل الأولى في يمناه، يسراه، متجهاً بهما نحو بيت **آل العطار**.

ولما وضعهما أمام البيت، انعطف منحدر، في طريقه إلى بيت والده، لرؤية الأسرة بعد غيابه أسبوعاً في **تافراوت**.

15

جلس **سيدي الفاهم** القرفصاء. أخذ يــروح بجريــدة **صــدى الجنــوب**. كـانت الغرفة غاصة بالضيوف. لقد دب فيها نشاط غـير عـادي. كـان منتفخـاً كـوحش يهم أن ينقض على فريسة حين سأله **عم بوهو** مشيراً إلى الجريدة :

- ماذا جد في الأمر يا **سيدي الفاهم** ؟

بسط الجريدة، وقال في افتخار :

- طالبنا في مقالنا هـــذا، بتحرير السوسية من العمل المرهق.

ثم سكت قليلاً وأضاف :

- لكننا- ويا للأسف !- جوزينا بالضرب.

وأنشأ يوجه كلامه للجماعة :

- أيعجبكم هـــذا ؟ أوَ به نجـــازي المفكرين ؟

أراهم أذنه اليسرى؛ وهي لا تـزال محمـرة من أثر الضرب !

سكت الجميع مبدين تأثرهم.

انـــبرى عبد **المالك** من بين الحاضـــرين قائلاً :

- كيف حدث ذلك ؟

أشـار إلى أحد الضـيوف من أفلا واسـيف قائلاً، وكأنما يتهرب من الحقيقة :

- قص عليهم الحكاية من أولها.

ثم تركهم بحجة إحضار الصينية.

قال الضيف: " الحكاية، اعتداء، لكنـني، أعلم من البـــادئ : **أســـيدي الفـــاهم** المجهولون الذين أصابوا أذنه. كنا نسـير معـاً **أفلاّ- واسيف** عند نزول الظلام، لم يكن صاحبنا وصـــاحبكم، يحمل في يـــده من ســـلاح، جريدته هذه : **صدى الجنوب**. نصـحته لأن عن مكـان **العـآمت**، فما قبل نصـيحتي تمادى في غيه، فعاكس سيدة لا أدري أهي متزوجة أم من **العــآمت** . كـــان يحلو

أمام الأسوار القصيرة كأنه خطاف من خطاطيف أبريل. وبينما مر أمام سور غير عـال، أُنـزل بهراوة كادت تطـير طربوشـه، لـولا أن جـرى الأمـام تفاديـاً لضـربة محققـة، فجاءته كما تـرون على الأذن ".

قال **أبا الحبيب** في سذاجته الفطرية :

- ترى لو تلقى الضربة بالطربوش ؟

- إذن، لطـارت الـرأس، وفقـدنا ما تحمله رأس **سيدنا** من فهم- قال **عم بوهو**. واستطرد الضـــيف: " الغـــريب أنه لم يقتنـــع، أن الضـــرب، إنما جـــاء من تـــردده على واحة **واسيف** متصابياً بشابات من **العآمت**؛ فكان إذا مر بحانوت؛ ونحن في الطريق إلى **أنامر**، يسأل صاحبه عن كحول، لوضعه مكان الألم، فإذا عما به، قال ما سـمعتم منه قبل قليـل، وزاد مقدمة بقوله : " كنا نسـير في حفظ الله وأمانـه، فإذا بهراوة...".

تقـــدم **عبد المالك**، فســأل الضـــيف أحقـــاً **ســيدي الفــاهم** هو صـــاحب الحقيقي ؟ " تنهد؛ وكانت هيئته، تنم عن بؤس : " بل أنا صــاحبه، بعته **لســيدي الفــاهم** علب سجائر".

الصوت العادي يصرخ من غور الدار : " يا غلام ! هـات الطـاس؛ فـالقوم ينتظـرون قـراءة المقال !

هل هو حقاً ينتظر مع هذه الجماعة قـراءة مقال ركيك عن تحرير المرأة في البادية ؟ عجيب ! عجيب أن تتحفز المـرأة في هـذا الجـزء المنعزل عن العالم للتحرر.

كـــــان عليها أن توجد متسامح، طموح : الدفاع عن المرأة غير ذي بال في مجتمع متفتح، فالمرأة أصلاً لها قيمتها ككائن اجتمــاعي، واع بــالحق والــواجب، ويفــترض القانون فيه، يكون قد قطع شوطاً في المساهمة في تنمية الأفراد والجماعات.

هـــو، لا يقبل عقلاً أن يـــدافع **الفاهم** عن تحرير **تعزة** المتحررة نسبياً بامتلاكها مهارات قروية.

بـــدا له دون كيشـــوطياً ليس إلا، وغادر غرفته مشمئزاً قبل تلاوة المقال.

16

مضى أسبوعان على إقامة **سي حمو** وزوجته **عيشة** في مسقط رأسيهما : **أنـامر** أن الأســــبوع الأخـــير والاستجمام، فقد كان بيته محط زيارات ودية وعملية : استقبل جماعة من آل بن عـدي جـاؤوا بحمــار محمل بكيس من الســكر، ومجــوهرات، وأردية نســائية، اتجه كبــيرهم نحو **السي** اســـتطرد في مقدمة طويلة **عدي**، " وجديته"، ومتانة مشاريعه الاقتصادية، إذ تولى إدارة مكتب لوكالة السفر الجوي، وهي من آخر أعماله الناجحة في **الدار البيضاء**، مائة في المائة. ثم قال :

- جئنا لخطوبة بنت حلال لا يــأتي بمثلها، في الأخلاق وحسن السلوك ...

هنا، نبهه آخر على كتفه، همس له :

- والجمال أيضا ...

ثم استدار المتحدث الخاطب قائلاً :

- أجل، والجمال الذي لا يصان إلا بالزواج، لفـتى شـاب ثـري نبيـل، قلما يجـود زمـان كذلك !

سمعت **تعزة** والدها يقول للرجال الخاطبين :

- انتظروا حتى أستأذنها !

دلف إليها في المطبخ. كـانت عاكفة الأواني تغسـلها، بينما كـانت **عيشة** متربعة أريكة تسـوي من زينتها أمـام المـرآة في مواجهة للمطبخ.

تعـزة لا تحتـاج إلى والمساحيق والكريمات، لتبدو جميلة في قرية منحصـرة بين صـخور وروابي **الكست** أريج العطـور البلدية تفـوح بحساسـيات جنسـية، حتى الحمـير تفضح النسـاء، فتشـرع في النهيـق. أما الزينة العصـرية، فلا يكـاد يلتفت إليها في الجو شبه الصحراوي.

قال **السي حمو** يخاطبها :

- إنك قـاربت العشـرين، وقد خطاب من **آل بن عدي** لخطوبتك : ماذا ترين ؟

ارتبكت، نظرت حواليهـا، فبـدت لها زوجة أبيها واقفة على يسارها في تحد وغطرسة، لكنها تمالكت نفسها فقالت :

- لا عيب في الـزواج، إلا أن لي أيضا الاختيار !

رد الأب في ارتباك :

- إني أنتظر قرارك الأخير.

احمر وجهها، أجهشت بالبكاء فاختلط ذلك بنبرات صوتها :

- أرفض الزواج في الوقت الحاضر.

تدخلت **عيشة** قائلة في حنق :

- إلى متى تظلين هكذا، فتاة طائشة، تتصدرين الأعراس، وحفلات الرقص ؟

ثم عادت تقول مؤكدة كلامها :

- جل من في سنك، أصبحن أمهات !

احتجت :

- أتركيني على الأقل أختار.

- وهل ترك لي حرية اختيار والدك ؟

هزت كتفيها دلالة على أن ذلك لا ثم نظرت إلى والدها الذي بقي واجماً كتمثال.

أخيرا سمعت **عيشة** تقول :

- لو كنت اختار، ما اخترت أباك، لوجود فتاة شرسة مثلك في هذا البيت

واجهتها بكل قوة :

- هذبي لسانك، فأنا بنت سيدة فاضلة، كان لتدخلي علي، لولا موتها.

ثم تبع ذلك صوت الجدة العجوز، كلام حفيدتها:

- أجل، ولا كنا نسمح للسان يلوك سمعة ابنتنا الوحيدة. ثم أضافت توبخ زوجة ابنها :

- لو أنت " إنسانة" حقا، لالتصقت بك ابنـــتي، كما التصـــقت بي. وهأنا لن مهما كان.

أجهشت **عيشة** بالبكاء؛ وقد انهـدمت قلعة للصمود لديها.

خرج السي حمو إلى الجماعة المنتظـرين ليقول لهم:

- يا قوم، إليكم أمتعتكم !

حاول رجل بدين يتقدم الجماعة إحراجه :

- يا سيدي، إن الهدية لا ترد.

أجابه :

- لا نبيع بناتنا في سوق النخاسة.

ثم أعادوا الأحمال إلى الحمار، فانصرفوا...

استعادت ذلك العمـاء، وتلك الفوضـى. لم تكن تـدري أن لخطوبة **قاسم بن عـدي** معينـاً يتجـاوز هـذا العـالم الـذي انغمست مكرهة بين صـــــخور **الكست** كاملة، وبين رفضها أية خطوبة أخرى لا تفهم مغزاهـا. تهكمت كثـيراً على عـالم لا تفهمه يفهمها. خلاصة القول أنها تمـردت، تمـردت الأوامر، وعلى القرارات، ورسمت لنفسها مصـيراً قد يصـمد أمـام الأقـدار، وقد لا فيتحول إلى قدر مقدور !

حريتها تنبت من مثل هذه الفوضى وهذا العمـاء، ولكنها تقـترن بنـوع من المسـؤولية، يحد من مطلقيتها، ويدخلها هي نفسها، تبعاً لذلك، في دوامة من المفارقات !

فقـــط، تمردها هو الـــذي نكهتها، يجعلها منفتحة رغم انحصارها بين جبل **الكست والدار البيضاء.**

17

جبل **الكست،** ليست شعبه ممراً لصخرة **سيزيف**. هناك طريق للراجلين، وطريق للبغال، لكن هـذا الطريق الأخـير انمحى بفعل السـيول،

وانتشار الأحراش والطفيليات، وانعدام سير الدواب.

كان في سالف من الأعوام، مصدر العيش لسكان السفح. هناك مدرجات في أملاك خاصة كانت تحرث إلى أواخر الأربعينات، كما أن مدرجات أخرى للكروم والأعناب، وأحطاب **تاسافت**. باختصار، ظل جبل **الكست** مورداً هاماً من موارد سكان سفحه.

ضربت موعداً مع عبد **المالك الشلال** الذي رسم طريقه بالبياض على الصخر المطل على السهول، **وجبال إيغشان**، التي تشكل خلفية للمنظر العام.

شيء رائع أن يدرب الإنسان قدميه صعود جبل في مستوى **الكست**، أن يكون في علمه مقدار ارتفاعه عن سطح البحر.

كان قد نال منه التعب، تعب وهي بجانبه تحت شجرة سدر. قالت له :

- اختبرتك في حفلة **السي بلحسن**؛ فإذا أنت، شخص صعب المراس، غيور. هيهات عزيزي !

ركز عينيه في وجهها، وحرك كتفيها كمن يوقظ فيها إحساساً بالنعاس؛ قال :

- إني لكذلك، وماذا بعد ؟

اتجه ببصره إلى الآفاق، في موقف خيل إليهـا، أن بصـره يخـترق الجبـال، يخـترق حوله، ويترامى في أطراف شاسعة من السهول. يـداه، لا تـزالان على كتفيها في إصـرار حديـدي، يؤكد موقفاً سبق أن أعلنـه، وكأنه يـذكرها **السي بلحسن** :

- إن حبنا تعصف به عاصـــفة مصدرها الأنانية.

أطرقت برأسها، فبـدت له كأنما تكفر هفوتهـا. إلا أن " أمـارك"، هـذه الكلمة الـتي معـنى حقيقي ومجـازي، كغيرها من المجـازات، يحيلها على الحـــنين، بل على استطاعتها أن تتخلص من هذا الحنين الرتيب في إيقاعاتـه، والـذي تصـاحبه دمعة أولى، ثم يتحـول إلى شيء ممل. فهل تشفي نفسها من الطرب ؟ المهم أن تعيش معه.

كـانت رائحة السـعتر تفـوح في **الكست**؛ والحطب كومة ملقاة كدليل إثبات في محكمة على الهواء الطلق !

تشبثت كلتا يديها بذراعه القويـة. تنهـدت؛ وعيناها مغرورقتان:

- حرام عليك، أنت آخر حبل أتشبث به !

ثم أردفت :

- خطبني كثيرون، فرددتهم على أعقابهم.

أسكرته كلماتها الحارة، ثم قال :
- ألم تتعمـــدي الإســـاءة إلي **السي بلحسن** ؟
بدا لها كائناً ساذجاً إلى حد استحالة اندماجه في مجتمع منغلق.
ثم شرعت توضح له :
- هـــذا ديـــدن الفتيـــات في **أحـــواش** الهفـوات ؟ عنها تسـألني ؟ هي نـزوات مغفـورة هناك، خطايا محببة.
- أنا أغفرها إلا مع **قاسم بن عدي**.
احمر وجهها خجلاً متعمدة أن تسأله :
- أمنه تخاف ؟
سكت قليلاً قبل أن يجيب :
- منه أتألم ليس إلا.
إذا كـــان عليها أن تعيش هـــذه الـــنزوة تلـك، وعلى وعي بهـا، فلمـاذا يحمل هو كل الألم في قلبه ؟ غير أنها استدركت :
- رددته في الأسبوع الماضي.
- كيف ذلك ؟
- تبعني فنهرته.
- ثم ؟
- ثم أرسل قومه يخطبني، فرددتهم
ورغم أن هذه البلدة المنعزلة، والمحدودة بأبعـــاد مـــا، أو على خط مســـتقيم يتجه

الكست إلى السهول الساحلية للمحيط مباشـــرة، فـــإن كل شــــيء فيها يرتبط الخاصة.

أقنع نفسه أن يجعلها تستنفد هذا الواقع، دون إحراجها في أن تفسره.

ترجته في وداد :

- أتستطيع التخلي عن مدموازيل **بوديه** ؟

ابتسم :

- أخذت معها الشاعر **بدر** إلى **فرنسا**.

نظرت إليه؛ وهي لا تصدق.

ما لبث أن اخرج من جيب سترته صـندوقاً كروياً صغيراً من عاج وضعه بين يديها قائلاً :

- هذا يكون عربون حبنا.

أسرعت تفتحه فإذا بها أمام خـاتم ذهـبي، تعلوه ذبلة من حجر.

عانقته جـذلى امتنانـاً بالهدية الثمينـة، تنصلت منه قائلة :

- تا**الله** ما أجملـه ! ألا تـرى أنه خـير سيارة **ميرسيديس**، وإن كان ثمنه قليلاً !

صدرت حشرجة بين أدغـال الجبل فـإذا يلمح **قاسم بن عدي**.

عصـــفت بأذنه موســـيقى لم يعد الإنذار، لكنها غدت تبشره بانتصار لابد منه.

أدارت ظهرها **لقاسم** الذي ظهر فجأة بين الأدغــال. لما التقت عيــون الشــابين، كلاهما في بــرود، التحية العســكرية في وسرعان ما اختفى **قاسم بن عدي** سالكاً طريقاً تنازلياً ملتوياً.

تساءلت باندهاش :

- ما الذي أتى بصاحبك هاهنا ؟

برم شفته مؤكداً أنه يجهل السبب. على كل حــال، عليه أن يتكيــف، أن ينحل الأشياء والناس، أن يبتعد عن المنطق، وكياسة التجار والأرثميطيقا.

عـــادت تتأمل بنصـــرها؛ وقد تـــألق الخاتم، تابعت حديثها :

- أما زلت مصراً على إتمام الدراسة ؟

- أجل.

- بعد ثلاث ســـنوات ؟ (مســـتعظمة الحقبة الزمنية).

- من المرتقب أن أصـير محاميـاً بعد سنوات.

سـكتت مطرقة برأسـها إلى الأرض، لا تريد أن تصل في استقراءاتها إلى المطلق، فطالما يوجد هناك جسد تتشبث به، فالدنيا بخير. تتشبث به دون قصد. وبمقارنة، حـتى يتحـول غايته.

وإذا حاولت التعرف على شاب من **العـآمت**، فليس ثمة من خطيئـة، ولكن الخطيئة تكمن في الرغبة في أن تعـرف. إنها تعـترف تحمل معها صك إدانتهـا، وفي ذات الـوقت، البراءة.

لاحظ الدهشة على ملامحها طمأنتها :

- ستمضي ثلاث سـنوات سـريعةً رواية !

- أكره ذكر الروايات.

- لماذا ؟

- الفصول تتداخل، وتتقاطع لتكون تراجيديا !

الحقيقة أن الجسد، يحن إلى الجسـد، الوحـدة، لكن العـالم ملـيئ بالخيبـات المتتاليـة. سارع إلى القول :

- سأظل وفياً طيلة ستة وثلاثين شهراً.

- أكره أن يكون حبنا قصة خرافية.

- بل حقيقة سيبقى كقمم الجبل.

- أخشى تلك الحقيقة تتمخض عنها تراجيديا.

وفي لهجة حازمة لا تخلو من يزعزعها :

- تصوري أن مستقبلاً زاهراً ينتظرنا. لا أجد الحياة إلا في زي المحاماة الأسود.

كـــان يحلو له أن يطلق لخياله فتهجس به أفكـاره : " لشد ما يشـبه المحـامون الرهبـان أثنـاء الـدفاع والتـدخلات، ثم بعد يلبسون ثيابهم العادية كغيرهم من الناس !".

داعبت خده بأنامل لطيفة، تبـدي ضـجرها في آن :

- إن ستة وثلاثين شهراً، معناها ألف ومائة يوم تقريباً؛ وهي دهـر، تـورق فيه وتزهر الأشـجار ثلاث مرات.

قـال محـاولاً إبـداء سـخريته ليـذلل الصعاب :

- السـنوات الثلاث هـذه، تشـرق الشمس وتغرب، أكثر من ألف مرة !

ردت؛ وقد طغت عليها رغبة ملحة في لهجة مهزومة :

- أخشى أن أنسـاك. كل شـيء يتغـير عالمنا.

- أوه ! كفاك مبالغة !

لما قـرأت بـادرة من التسـاؤل في عينيـه، حذرته :

- لا تسيء ظنك بي؛ فما أنا إلا بنت سليمة الطويـــــة، لا يســـــلس قيادها للدونجوانات.

هــؤلاء كلهم كــانت قد جــابهتهم بصــرامة مدحورين مغلوبين، حتى إذا رأته هو، ذروة تشرق منها الشمس وتغيب، بعد شعور بالغربة، وانسلال من هــذا المحيــط، إلى حيــاة لا وجــود لها الخيال... حـتى إذا رأته بــدوره غريبــا، يطفو محيطه هذا، شعرت برغبة الدنو منه والاقتراب.
توسلت إليه :

- حـــرام أن تتركـــني وحيـــدة بين الأشجار.

ثم أضافت :

- سرعان ما تتجرد من أوراقها بعد إزهــار، ثم تعود. وخلال الفترتين، أذوب سأماً وانتظاراً.

وتشـبثت بــه. ثم تنصـلت منه فجـرت رزمة الحطب والحشائش تشد عليها بالحبل حزاماً، كأنها قدرها الذي يلازمها حتى تتحرر.

ربما تصـــالحت معه على أســـاس الشـقاء، وعلى أسـاس الـوعي بـه. ربما تنكـرت لأشواقها التي تسـتبد بها الآن، باسـتثناء شـعورها المسترسل في التوحد معه والانحلال.

نظر حواليه، كأنما استفاق من الذهول، كل شيء يبدو دون قمم هذا الجبل ترفعاً. بـدا نفسه حقيراً أمام أعالي **الكست**.

استـوى القـوام الرشـيق بعد أن عقـدت صـاحبته شـحنة من الحشـائش والأعـواد ظهرها.

أما هـو، فقـام يتبعها كالظـل. اسـتأنفا طريقـاً تنازليـاً بينما ظلت هي تصـدح سوسية مفادها :

" إلهي كن عوننا". ثم اللازمة.

كـان صـدى الأهزوجة مـازال يـتردد أرجـاء الجبل الهائـل. فلما انتهت من شـعرت بوضـاعة أمـام جـبروت القمم الصـخرية الهائلـة؛ وهي مـازالت تهبط المنحـدرات، وتـردد النداء التقليدي :

- " نعم أين أنتن ؟[12] "

تلاشت الأصـداء، وهـدأ الكـون خطواتهما.

تستطيع أن تتغلب بمفردها على الصعاب الـتي تصـطدم بهـا، وتجعلها خـارج الإنسـانية، باستثناء هذا الهباء السديمي. ماذا تعـني بالنسـبة لها مهنة المحاماة، ولا دراسة القانون، ولا سـيارة

---

12 **- نـداء تقليـدي تسـتعمله الفتيـات القرويـات، قصد الالتمام، والتجمع، لكثرة شعب الجبل واتساع أرجائه**

ميرسديس، أو الخاتم الذي كانت تبتهج به منذ بضع دقائق ؟

مازالت لم تعثر على معنى لهذا العالم، لهذه الفوضى العارمة، المليئة المفارقات.

إن ما تعيشه ملموسا من معاناة مع أخريات، هو ما تفهمه تماماً، لا ما ادعته تجريدية واجهت بها **مدموازيل بوديه** التي لم تكترث بأقوالها وادعاءاتها.

حاول إرضاءها :

- الحياة على ظهر الجبل، قصيدة شعر.

حذرته بجدية :

- أنا لا أستطيع الانتظار.

تجاهل ردها؛ وقد بدت لهما دور **أنامر** وهامات قلاعها الحمراء، كسفينة هائلة عباب هضاب **الكست**، في واحة غناء الظلال.

18

انتصب **بورون** نحو حضرات الضيوف في خطى مثقلة بالضجر والإعياء. ابتدأ **بعم بوهو** حاملاً إليه الطاس، فشرع هذا الأخير، يغسل يديه ويمضمض.

لما أتى دور **قاسم بن بورون** من أخمص قدميه إلى قمة رأسه. رنا إلى وجهه كمفتش شرطة، ثم همس في لدي أمر هام، سيسند إليك إنجازه".

هز الغلام رأسه، علامة الإيجاب تلقائياً، لكنه تلكأ عن متابعة صب الماء، فقال له **بن عدي** : " ستأتيني بخاتم **تعزة** الذهبي كان. " سكت **بورون**، كأنه لم يفهم، أو هو فعلاً لم يفهم مقصود **قاسم**.

كان الجميع ينصت إلى بقية المسند إلى **سيدي الفاهم**، بينما **بوهو** فرصة سماع ما دار بين الشابين.

ولما كان **قاسم** مفرطا في الحساسية، ذكياً، يعمل لكل طارئ حسـابه؛ فقد لجأ إلى لذة الاستماع على الحاضرين :

- زم شفتيك يا **بورون**، ففي الإمكـان يصنع منهما رطل من كباب.

قهقهت الغرفة بأجمعها، حولـوا أبصـارهم نحو **بـورون**، إلا **عبد المالك** الـذي بقي فاه كأنه غارق في خضم من الأفكار.

ثم انشغلوا من جديد بقراءة المقال.

ودون اكتراث بهذه المسرحية المصطنعة، تقدم **عم بوهو** يهمس **لقاسم بن عدي** :

- بمـاذا كلفت **بـورون** ؟ لقد سـمعت شيء.

- بمهمة لا أظن يحققها أحد سواه

- الخير في صـاحبك البهلـواني الـذي كـان يمشي على الحبال.

همس إليه **بن عـــدي** مـــدارياً اليوم، كهل، من حقك علينا أن ترتاح".

حاور نفسه : " كان من حقي أن أرتـاح كـــان لي أولاد في مثل ســـنك ! كنت أغازل أمهاتكم. كل الأسرار مازالت في ذهني؛ وإن غبت عن هـــذه البلـــدة زمنـــاً " ولكنه يستجدي صراحة **بن عدي** : " أشجار الزيتون لم تزهر هذا العام، كيف لي أن أرتاح ؟".

دس في يده ورقة مالية، فصمت **بوهو** هنيهة ... ثم طال صمته. لكن **بن عدي** حذره : " الــتزم الراحة والســكوت، شد لســانك يعنيك !".

هدأت الغرفة من ضجيج التعـاليق. الجميع يحتسي الشـــاي في مهل واطمئنـــان، **الحـبيب**، فهو ينـاجي الكـأس، مشـغول البـال، يلقي تحذيراته المعتـادة إذا مر أحد أمـام النبيذ، بين آونة وأخرى. كانوا يرونه آثما ويريـدون أن يعـترف بـذلك، بينما يـأبى إلا أن يسـتغرق شــعوره الخــاص بــالبراءة، حــتى **عبد** نفسه، كان يريد منه أن يعترف بذنبه. غير أن **أبا الحــبيب** يحتضن مصــيره، يحــرص عليه على زجاجة الروج من أن تهرق على السجاد الأحمـــر. إنها لقمينة أن ترتشف بلطـــف، جوفه، شيئاً فشيئاً، بمجالسة نديم، أو بدون ذلك. وهل يمتلك مصيره ؟ كل ما يـدرك عند فـراغ زجاجة نبيـذ، أنه أتى على كل ما حولـه. وهـاهو يستهلك زمانه، ولم يبق إلا ذلك الحيز الذي يحيط بــه: جــدران غرفة **ســيدي الفــاهم**، وهــؤلاء التعســاء الــذين لا شــأن له بهم. "الله **سيدي الفاهم** !" لم تعن له هذه العبارة التي خرجت من فم **عم بوهو** يودع بها صـاحب السمر، شـيئا. قالها وانحـدر يهبط الـدرج، ثم

بقية الضيوف يتسللون. استأذن **بورون** ليذهب للعمل مع **قاسم بن عـدي**، فـأذن له **الفاهم**. غادر مع **قاسم** الغرفة إلى بيت **آل عدي**. وفي الطريـق، تصـنع البلاهـة: " أي عمل تريدني القيام به، ذكرني به مرة أخرى" ؟

- لدي مهمة صعبة، وسهلة في نفس الوقت.

- ماهي ؟ قال **قاسم بن عدي.**

- أتعرف **تعزة** ؟

- بنت **السي حمو آل العطار** ؟

- لا يهم. كان جدها عطاراً.

سكت هنيهة، ثم استأنف :

- المهم أن تنجز لي مهمة لديها، ولك على أتعابك مبلغ مالي وفير، فأنا رجل سخي.

حـرك **بـورون** رأسه تخوفـاً، لكنه ما أن استدرك:

- إذا كانت تلك المهمة في حدود الإمكان.

قال **قاسم بن عدي** مغتاظاً :

- قاتلك **اللـه** !أتخفي عـني أسـرارك ألست من الـذين **تيسينت** ؟

ولما رأى تجاهله، قال في حنق؛ وقد اشتد غيظه :

- اغتصبت فتاة هناك، هربت إلى هذه الواحة تستظل بظلالها من عقاب منتظر.

ازداد التجاهل على وجه **بـــــورون** **قاسم بن عدي** نبهه محذراً :

- أنت، من أنت، تتظاهر بـزي المضـحكين المغفلين ! أليس الأمر كذلك ؟

كاد **بورون** أن يتهاوى إلى الأرض، فقال :

- بلى !

- ثم تشـترط علي : إذا كـانت في الإمكان، بعد أن وافقت على إنجازها ؟ قال **قاسم بن عدي**

انهار كلية أمام الحقيقة، فأخذ يلح :

- ســيدي، عيِّن لي مــتى ســأقوم وسأكون رهن إشارتك.

نظر إليه محذراً :

- " من بـــاح بســـرنا يعمى سأسلمك إلى العدالة بسيارتي، وأتنصل من أية مسؤولية.

ثم خفف من حدة تحذيره :

- على العكس، إذا لـــزمت ستظفر بمبلغ مالي لا بأس به، إذا ابتعدت عن تجاهلك، وتراجعك ...

تغيرت نبرات صوت **بورون**، فقال :

- سيدي : لم يبق لي إلا أن تعين المهمة، وستكون هينة علي.

- الأمر وما فيـه، أن تحصل على خـاتم دبلة من خنصر تعزة، لا غير، دون هرج أو مرج

- والمبلغ ؟

- لك عشرون ألف ريال.

دسَّ في يده، ورقة من عشرة آلاف فرنك كتسـبيق مقـدم، ثم ضـرب على راحتـه، كإشـهاد على إتمام الصفقة. قال؛ وهو يضع الورقة المالية في جيبه :

- غدا يكون الخاتم في بنصرك أنت !

19

كؤوس الشاي تحتسى. لم يصدر عن **أبا الحبيب** الليلة، تحذيره العـادي : " رفقـاً بهـا، بلغ **السيل الزبى**".

فقط، شخصان لم يحضرا الليلة : **بورون وقاسم بن عدي**.

سأل **بوهو سيدي الفاهم** عن **بورون**، فقال : " إنه يعمل مع **آل العطار**، وهم سيقومون بتموينه مدة أسبوع". وما لبث **عبد المالك** أن تسلل بدوره، ملاحظاً الشخصين.

الظلام يعترض طريقه، استعان بمصباح بطاري يكشف به معالم الطريق. وانحدر يخترق أزقة **أنامر** الضيقة...

أنامر في الليل، هباء في قبة السماء، وظلام دامس كوني على الأرض، لاسمها في الليلة الظلماء !

وفي طريقه إلى بيته، لمح ضوءاً بطارياً يتكسر على وجهه. رد بالمثل، إلا أن الضوء، لم يترك له فرصة التعرف على صاحبه.

اقترب من دار **تعزة**... عادت مسمعيه رنات منذرة تعوّد عليها، توقف. تأهب لكل طارئ:

هاهنا سطع الضوء الذي لم يتبين صاحبه بالضبط !

لكن، ما عسى أن يحدث في ليلة دامسة، وفي قرية محافظة مسالمة، نام

سكون- كما تعودوا- لا يستفيقون من سباتهم إلا حين **أذان الفجر**؟

شـيء سـخيف أن يفكر مع سـكان القرية في حرية ما. هم يقولون على مدى : "هناك شرذمة من الأشرار، رأس كل بلاء !".

ولطالما تسـاءل بـدوره : " بمـاذا تتحقق تلك الحرية مطلقـاً ؟ وإلى أي مـدى يشمل انبساطها وسيادة قيمها ؟".

إذا كـان الهـدف هو أن يكـون وحسب، لذات المحاماة ليس إلا؛ فهو إذن، يغدو عبداً لحرية مأمولة. وتلك إحدى النقط الرئيسـية التي تكشف مفارقة هامة في هذا الصدد.

أرهف السـمع، وبين آونة وأخـرى، يسـمع أحجاراً تتدحرج. ثمة إذن كائن متحرك ينحـدر الأزقة المظلمة.

- قف ! من أنت ؟ "

لا أحد يجيبـه. أخيـال ذلـك، أم حقيقة يستطيع أن يكذب حواسه، فهو سليم البدن !

أخذ يشمئز من شرذمة **سيدي الفـاهم** لم تعد تعني له شيئاً. أكثرهم يسـتولي على **بورون** بجد، وينتظر الشـقي تـبرير حريته بـذلك التسويف المبني على غد. إلا أنه يظل عبـداً الهواجس والخواطر، ولذلك الغد بالذات.

وماذا يمثل هؤلاء وأولئك **لبورون** سوى بؤس على بؤس، وعجز على عجز ؟

الضـوء يخـترق وجهه مـرة ثانيـة، ويـرمي بضوء مصباحه اتجاهه عبثاً دون أن يتبينه !

وفي حزم، وحذر، صرخ بملء فيه :

- " قف ! من أنت ؟ ما قصدك ؟ أتريـدني بالذات ؟ انكشف لي، وإلا فأنت جبان !!".

ذهب كلامه هدراً، صيحة في واد؛ ولا لمن تنادي !

له أن يمتح من الأوهــام الجامحة تتوقف إلا عند الفناء، وله ألا يكترث إلا بصباح يعطي لبلدته معناها الحقيقي. **أنــــامر** هذه الليلة الدامســة، ليست إلا ظلامــاً في يا لغربته القاسية !.

الكائن المتحـرك يـدحرج الأحجـار، كضـبع ضالة مضلة.

ثم ابتعـدت الدحرجة عن دار **تعـزة**، أملاً في طريق الكشف عن الكـــائن انحدر بدوره؛ ولم يشعر إلا وقد وجد نفسه في الطريق العمــــومي المخصص للســـيارات. عَبَر الطريق في اتجاه الحقول، فاصطدم بسلة بقـول حــتى كــاد يســقط. ســمع **عم بوهو** يقــول حركة مسرحية : " رويدك يا أسـتاذ ! " سـأله ألم يمر أحد هنا ؟ تصنع الجهل : " في هذه

الساعة لا ... ". انقض عليه يمسك بتلابيبه : " لا ينفعك إلا ذكر الحقيقة أيها البهلوان العجــوز الذي مر هنـا؟ " انـزعج، إذ خـرجت الكلمـات فيه متقطعة : " **قاسم بن عــدي** هو الــذي من هنا ؟".

خلَّى سـبيله. عـاد يغـير طريقه نحو **أنامر**. فلما وصلها، لم يجد أحداً هناك. جلس على حافتها يصـغي إلى قعقعة الضـفادع يقاطعها خرير الشلال، بينما يكـاد مسـتوى المـاء فيها مترين ونصف المتر.

البركة في الليل، لوحة تعكس جـزءاً قبة السماء؛ بمذنباتها، وبنجمها المـداري، قبل تحل **فينوس** متلألئة، تعلن عن فجر مـا... لاشك أنها الآن، تتعـــرى في خلوتهـــا، تكشف تستحم في الهباء.

20

مضى النصف الأول من الليل، حينما تسلل **بورون** إلى السطح، حيث تنام **تعزة** فالوقت صيف. وقد كان قبل ساعات، الصباح تماماً، حوالي العاشرة، يتسلم خمسة آلاف فرنك من **السي حمو**، قد أوصاه بحفر **بحيرات** الزيت، وقلب تربتها، على أن يمون طيلة أربعة أيام، وبنفس اليومية؛ وهي المدة التي حددها له **بورون**، كأجل لإنجاز عمله. وكان **السي حمو** قد أخبره؛ وهو يصعد إلى سيارته مع زوجته **عيشة** :

- أنا مسافر إلى **البيضاء**، كلفت **تعزة** بأن تقدم لك الوجبات في أوقاتها.

- شكراً لك يا سيدي، وعودة بحول **الله** !

وانطلقت سيارة **السي حمو** في منحدر نحو **تارشـــالت**، متخـــذة طريقها **أملن** إلى **تافراوت**...

اختـــار **بـــورون** ضد عالمه الهـــادئ **تيسينت،** أشياء وأفكاراً كثيرة، حينما تمـرد دون أن يعي حتى تلك الأفكار المتصلة بالنزوات وبالاســـتيهامات. وهـــاهو يقر بما آل إليه يوافق على الخصي الذي مارسه عليه النخاسون بالقوانين التي بمقدار ما تهبه حرية ما، بمقدار ما تحد من حريته، فيتمرد، ويحاول التحرر، وينغمس في أهوائه الخاصة حـتى الأذنين. فبعد عمل كامل في حقول آل العطار، دخل الغرفة الخارجية المخصصة للخدم. " لا رجل في دار **آل العطار** !"

وكانت العجوز قد نقـرت البـاب، مؤذنة بأن يحمل إليه أواني الطعام الجاهز : كان عن طـاجين، ورغـائف ريفيـة، وأجهـزة الشـاي. سمعها تقول له :

- **بورون** ! إليك يا ولدي طعامك !

بسمل متظاهراً بتقوى كاذبة.

ثم أضافت العجوز :

- فرغت **تعزة** من طبخه منذ ساعة.

- طيب !

سمع خطواتها؛ وهي تهبط الدرج.

التهم ما يكفيه من الطعام، ثم عمد إلى الشـاي؛ وله طريقة في تناولـه؛ فلـون الأولى، لا يفرق عن لون القهوة لكثرة غليه على المجمرة.

تنـاول أربع أكـؤس متتابعـة، ثم جهز إبريقا ثانيا بالنعنـاع، تنـاول منه كأسا واحـدة. ثم العجوز :

- أن احملي الأواني وأجهـــزة رحمكم **الله**.

وضـعها بنفسه جـانب البـاب الخـارجي، متظاهراً بالحياء، وعدم الاهتمام إطلاقاً بالنساء !

ثم سـمع العجـوز **وتعزة** تأخـذان الأواني قصد غسـلها وتجفيفها من جديـد. لم يعد بعد ذلك لحركاتهما وقعاً.

لقد هدأ كل شيء.

شعر بانتعاش، إذ تاه فكـره في خضم مدلهم. كلما حاول الوصول، أو الإمسـاك ما، تاه في غمرتها.

ما أشد غمــوض الزمـــان ! فليعتمد شجاعته في متابعة المغـامرة ! سـار بحـذر السطح العلوي باحثاً عن أمتعة **تعزة**. غمغم : " المهمة شاقة، وقد تورطت فيها".

ســتكون حاســمة في تقرير مصــيره، ســيتحرك إلى الحــدود الــتي تضع أجلاً

لحريته، إن لم يعاقب على تهوره. المبلغ مغر : مائة ألف فرنك ؟ أجـل، تضـاف إلى خمسـمائة ألف فرنك أخــرى، ملـــواة على خرقة ســرواله. ولتكن؛ فلن يــرده رادّ، ولا تحقيقها ! وهو، ذلك الصحراوي الشرس، الذي يرتقي مراقي النخيل السامقة ! وكيف به الليلـة، يشك في بلـوغ مرامـه؛ وقد اجتـاز الـدرج المبنية من لبن وأحجار، سقوفها من جذوع نخل وجرائده ؟ العفة لا تحتاج إلى سلوك وقواعد، لأن تلك القواعد والســـلوكات، إن هي تبريرات.

قدم خطوة، أخر أخرى. ماذا ؟

تـــذكر أنه ارتحل من **تيســينت** ارتكابه جريمة اغتصـــاب، لما افتضح السكان، وشاعت قصته لدى السلطات المختصة كمجرم شرس منحرف لا يفارقه العنف.

كان يتستر في زي " خادم" مغفـل، خامل الـذكر، تعينه بشـرته السـمراء على القيـام بـدور مسـرحي في الخـداع ! لأنه لا يسـتطيع أن اللوم على الظروف، وإنما على نفسه، بخصوص فعلته في **تيسينت**.

عــاش بهــدوء وســلام بين **الأنــامريين** الأسخياء.

ترى، لو كان بقي في بلده على براءته الأولى، لتعاطى ضروب الكرم والنخوة، ولضـاهى هـؤلاء المغـرورين القـابعين كالحمـائم في سـفح **الكست**. لا يعملـون بجـد؛ إلا وهم في طـريقهم إلى **الدار البيضاء**.

ولأول مرة، شعر بحقارة نفسه، وبمطارق ذنبه الأول، تهــوي على رأسه المحلــوق، يشبه حجراً كروياً.

ماذا ؟

هو موضـوع للمطـاردة، العدالة تبحث في بلدته **تيسينت**. غداً يتابع أنى كان.

تراجع باحثــاً عن مشــاعر الصــفاء. إلا خـاف أن يسـلمه **قاسم بن عدي** إلى العدالـة، فهـان عليه الإقـدام على ارتكـاب سـابقة "وتهون،غير شماتة الأعداء !". لقد تصور كيف يتشـــفى به أولئك شـــماتة؛ وقد القبلي مبلغه، على إثر تلويثه سمعة عائلة كبيرة من **تيسينت** وتمريغها في وحل العار. وهـو، هو، ذو نفس حرة أبية، صـقلته الصـحراء، فيه بواعث الطموح، والعزة والكبرياء !

هو يلوم نفسه، ولا يلوم الظروف.

وتقــدم بخطــوات حــذرة نحو مقصــده، أغمض عينيه. لن يأخذ إلا الخاتم ! اضطرب تحت

ضغط لا يستطيع مقاومته. في اعتقاده، أنه لن يقدم على ارتكاب جريمة أخلاقية مرة ثانية.

لأول مرة، شعر بعطف نحو **أبا الحبيب** تذكر ما كان يجيب به موبخيه : " للضر أحكام". ولكنه هو، يلوم نفسه، ولا الظروف. هذا هو الفرق. ولسبب ما، يجهله، وجد نفسه يردد معه : " رفقاً بها، **قد بلغ السيل الزبى** !".

فتح عينيه، فارتمى بصره على **تعزة** وهي مستغرقة في نومها : كان وجهها تأمل قوامها، تشاغل به هنيهة، حتى كاد ينسى شعوره بالذنب، والمهمة التي تخطى حرمة الدار من أجل إنجازها.

وأخيراً، استقر بصره على نضد رأى صورة **عبد المالك**، في إطار صغير، وبجانبه صنيديق الخاتم...

تقدم بتؤدة وأناة. قنّع وجهه الصحراوية الزرقاء. وفي خفة، انتزع الخاتم من الصنيديق. استدار في سرعة، تأملها وهي لا تزال تغط في نومها.

الجريمة الأخلاقية الأولى التي تحمّلَها بلوم نفسه، قبل لوم الظروف، ما كانت لتقع مباشرتها، لولا **تيسينت**، تلك التي قيل إنها من الحسناوات السمراوات، أكثر من غيرتها على

الحسنوات الشقراوات. ومع ذلك، تحمل الجريمة، فنسي **تيسينت،** وشمسها **وبحيراتها**، وحسناواتها، تحت وطأة القوانين المعمول بها. أما تفاصيل وقائع الجنحة هنا ليلته هذه، فلا يرى أنها ترتبط بمنطق كامل، ليس فيها إغراء متبادل بين الطرفين، ليندفعا **بحيرات** الفصة، ليحصل ماهو حاصل. هنا فقط جسم ممدد في نعاس.

ترى، هل كان واعياً **تيسينت** ؟

تحمل وزر جريرته. زادت أوزاره، فأمسى تعبان منهوكاً. لوى الخاتم ببساطة في طرف عمامته المتدلي. عندئذ، تقلب القوام الرشيق النائم، فزعزع ثبات الصحراوي الحاذق؛ اصطدم **بتاغرة** الحليب النحاسية، إذ الفتاة تبيتها بجانب رأسها، لتحلب البقرة في الفجر. رن صوتها، فاستيقظت، هبت واقفة ذعر لما لمحت شبحه يختفي وراء تستطع تمييزه، فصرخت :

- واجدتاه ! اللصَّ !اللصَّ !

بسملت العجوز التي كانت تنام في السطح؛ وفي ضجر وانزعاج، أجابت بدورها :

- ماذا دهاك ؟

كانت لا تزال ترتعد مضطربة حينما ردت عليها :

- لن أنام وحدي. اللص ! اللص رأيته !

- لا داعي للمبالغة، بلدتنا آمنـة. اللصـوص في المدن (تطمئنها)

استيقظ الجيران على إثر الصراخ.

ثم نادت العجوز : " **بورون** !".

*****

قال شيخ : إنه سمع وقع خطوات تتدحرج في الزقـاق. وزادت" **تعزة**" بأنها فقـدت خاتمـاً ذهبياً.

تجمهر القرويـون عند بـاب **آل العطـار** واسـتعملوا المصـابيح البطارية في الكشف المجرم المفترض.

21

منذ الصباح، كان رجال الدرك يقفون في **ساحة الحوض**. قلما يألف سكان **أنامر** مشاهدتهم بزيهم الرسمي، سوى المناسبات، فيضفي ذلك على البلدة رسمياً مهيباً. " لا بأس !" " كانت محاولة فاشلة !". " الخاتم"، بندقية الصيد، رجعا مكانهما" لكن أحد رجال الدرك أمر **المقدم**، بإحضار البندقية والخاتم والعمامة **وتعزة** !

نشطت تعاليق النساء الفضوليات : " الخــاتم، جاءها من **عبد المالك**، شــاب ومفلس !" عضت الكثــيرات على نواجــذهن أية حماقة ارتكبتها **قاسم بن عدي** !".

أخذ الــدركي ينــادي على الشــهود. كــان أولهم عليها. ما كادت **تعزة** تراه تلك الليلة، يبحث مع القرويين عن اللص المفترض، حتى أسـرعت ترتجف : " عزيزي: سرقوا الخاتم !".

أحس حينـذاك أن آماله تتبـدد. ضـحك عمق نفسه، ترك وراءه كلام القرويين وإشاعاتهم. تضاربت الأقـوال: تـدعي **تـاهرة** **تعزة** عرضة لمحاولة اغتصاب. وهناك من يقول : ذلك مجـرد أوهـام. وقـالت إحـدى الجـارات تلك مأساة البنات اليتيمات ".

وكــانت العجــوز قد دقت غرفة **بــورون** لكن أحداً لم يجبها، ثم انتبهت إلى أن البـاب مغلـــق. دخل جــــار، فلاحظ أن الغرفة تســاءل : هل بــات **بــورون** الليلة في أجابت العجوز : لعله بات عند **سيدي الفاهم**. وكان الجميع يبحثون عن اللص المفترض.

شــعرت **تعــزة** بالمهانــة، فبكت كثــيراً. وبتــأثر، تركها ليــذهب إلى جــدتها يطلب

تمكنه من بندقية الصيد. بعد لأي، اكتُشف أنها سرقت هي أيضاً.

انحدر في سرعة نحو الخرائب، يبحث عن اللص المفـترض، رما بمصـباحه هنا وهنـاك جدوى. أغلب سكان القرية يبحثون. مضت ساعة دون نتيجة. فقط، القرويـون رجعـوا إلى بيـوتهم، أحكمــوا إغلاق الأبــواب. أما الجــارات، فكن انتقلن إلى بيت **آل العطار**، يـثرثرن في التي هي مرشحة لكثير من التعاليق.

لا منفذ للص إلا الطريق العمومي !

وفي إحــــدى الخــــرائب المتطرفة الدوار" سمع حشرجة. تقدم نحو مصدر الصـوت. وما كاد يخطو نحوه، حتى رمي بالحجارة ! فكمن بعد أن دحــــرج صــــخرة في انحـــــدار العمومي، مما جعل الحجارة تنهال على الصـخرة المتدحرجة بدون انقطاع !

اتكأ على جـدار قـديم؛ وقد تـربص بـاللص المفـترض، والتصق به كأنه عمـود. وبعد هنيهـة، سمع الشخص المختفي ينحدر في اتجاه الواحــة؛ وقد تقلد ببندقية الصيد !

هاهو اللص سيختفي في أمــان ! لن يفلت. سيستعمل معه ما تعلمه من أساليب

المصارعة. لكن، ما الحيلة؛ وفي يديه بندقية ؟ وكيف الاقتراب منه؟

انحدر الشخص المجهول بسرعة نحو واحة **أنامر** ذات المنحدرات والهضاب الملتوية.

لم يكن يخـاف الأسـوأ؛ بل كـان حدوث شـيء مـا، منذ أن اشـمأز من منـاخ **سيدي الفاهم**. وكان يزيد من شدة هذا الإحساس، ليل **أنامر** تبعـه، ومن خلال الأشـجار، تعرف على شخصه : هو **بورون**، ولا أحد سواه ! الأمر لا يتعلق بسرقة. اختطاف إذن ؟ اغتصاب ؟ انفجرت ثورته في ظلام **أنامر**. سخر من نفسه؛ وهو الـذي يشـتاق إلى أن يـدافع عن المظلـومين يومـاً، أن يوقف المشـانق عن الرقـاب. صـاح صوت من الأعمااق " الكرامة أولاً !".

انـدفع يتبعـه. وهنـا، خطـرت له فكـرة انبطح في مرتفع حقل مرصـوص بالحجـارة، بينما أخذ **بـورون** الصخري الذي يشبه الدرج. وفي سرعة، تبث مصباحه البطاري في مرتفع الحقل، تركه تجاه **بورون**، ثم رماه بحصوة صغيرة، فانبطح بعيـداً عن المصـباح. ركز **بـورون** البندقية المصـباح متشـاغلاً به دون أن يطلق وفي خفة رياضية، انقض عليه، أمسك البندقية فصوبها تجاه الهواء، فخرجت العيارتـان هبـاء،

لواها في يديه في حركة بالمصارعة. وجد بعدها **بورون** نفسه، مشدوداً إلى ظهر **عبد المالك** وسرعان ما طبق عليه العمامة يريد شنقه بها. إلا أنه لم يمهله ليحكمها في عنقه، فرماه أرضاً. قام **بورون** يعيد الكرة، وقد دبت المشاكسة والعنف، التحم معه **عبد المالك** ثنى نصفه، ثم بضربة ركبته أقامه، وأهوى يديه على عنقه حتى كاد **بورون** يسقط من فرط الإعياء. ثم استرد أنفاسه، فتماسك ليطبق أسنانه كآخر سلاح للمقاومة ! اتكأ **عبد المالك** على عنقه بساعده الأيمن، فلواها، ولكن **بورون** أطبق أسنانه باستمرار، مما جعل **عبد** يدفع به في حركة رياضية متدحرجاً في منحدرات الحقول، فخلص عند ذاك إلى ساعده المنهوش؛ وقد شعر بالألم، ثم انهالت عليه الأحجار جديد؛ وقد أطلق **بورون** ساقيه للريح.

لهث **عبد المالك**؛ وقد أقبل مصباحه البطاري كل القرويين على إثر سماع الرصاصتين من بندقية الصيد. تساءلوا عن هوية اللص. أخبرهم : " كان اللص، هو **بورون** وجاء من يقول إن **بورون** التجأ إلى دار **الفاهم** يستجيره فأجاره.

سلم البندقية والعمامة **لتعزة** في انتظار قدوم رجال الدرك، ليعود أدراجه إلى البيت.

هل كان **بورون** يود قتله ؟ هل كان يود الانتحار ؟

تعـــرف القرويـــون على صـــورته عشرين صورة في الورقة التي بسطها الدركي أمـــامهم، كـــان اســـمه، كما هو مســـجل السـلطات:"**ابريك بن أحماد بن الطـالب علي**".

التفت الـدركي إلى **قاسم بن عـدي** عليك أن تصاحبنا لمواجهة **بـورون**. لقد اعـترف بكل شيء. هو الآن في المعتقل الاحتياطي"

استسمحه أن يأخذ سـيارته، لكن الـدركي أفهمه: " لا داعي لذلك، تفضل معنا في الجيب".

وكان الـدركي قد تسـلم البندقية والخـاتم والعمامة ورخصة الصـــيد من **المقـــدم** تقـدمت **تعزة** لتـدلي بإفادتهـا. إذ كـان يعتقد الخاتم **لقاسم بن عدي** حينما سألها:

- أية علاقة بينك وبين **قاسم بن عدي** ؟

- لا شيء.

قـال : " لعله المـدبر الرئيسي للاسـتيلاء على الخـاتم". لكن **تعـزة** أوضـحت أن الخـاتم يخصـــها، وأنه هدية من نربطها به علاقة صداقة. وربما تتطور إلى خطوبة. وعدها الدركي أنها ستستلم المحجوزات بعد الانتهاء من الإجراءات.

هذا ما كانت نساء الحي ينتظرنه، ليسدلن الستار على التكهنات !

وكـان **سيدي الفـاهم**، قد أثـار سـخرية الـدركي، حينما أخـرج صـحيفة **صدى الجنـوب** وحينما عجز عن تحديد مهنته بالضـبط. وأخـيراً، أجـاب أنه يعيش من أتعـاب زوجته الفلاحـة. أما **تعـزة**، فلم يخطر على بالها أن يكـون **بـورون** بمثل تلك الخسـة، فيتجـرأ على الصـعود مضـجعها فـوق السـطح العلـوي، ليسـتولي على الخاتم والبندقية.

وتســاءل **عبد المالك** بــدوره اندثرت المآثر والنعرات، بخـروج الرصاصـتين، بتلاشي العمامة ؟"

يصـعب إيجـاد علاقة بين هـذه الواقعـة، والطريقة الـتي أصر على تقـديم الخـاتم **تعزة**، إذ يقف على طرفي نقيض مع العمامة، والبندقية، وحتى **المرسيديس.**

مجرد فانطازمات !

22

لم يستطع أن ينام تلك الليلة. بدا له والده كالمقـامر ! آخر ورقة يلعب بهـا، هي ما تبقى أشجار الزيتـون. والبقية الباقية من شـجر اللـوز، رهنت لعائلة **بن عـــــدي**. أحس تطبق على عنقه كأخطبوط، لا تترك له منفذا للتنفس، أولا يتنفس مع الأنفس. استفحلت الأزمة عندما استغني عن والده أخيرا في **تافراوت**. وكان قد ألقى على **زينة** بعد أن رجعت من حفلة نظمتها القبيلة مع بعض أفراد **العآمت** من الـدواوير المجـاورة؛ بمناسبة زيارة سـفير دولة كـبرى **لـوادي أملن**

مصحوبا بالسيد **العامل**. قالت له بعد أن سلمت الحلي التي استعارتها، إلى جارتها :

- أجميلة مدينة **الدار البيضاء** ؟

- جــداً، ولمــاذا هــذا الســؤال ؟ جبينه).

- بعد أيام أسافر إليها (ازدادت دهشته).

أخذت سوادات الغلس تنقشع،حينما سمع أمه توضح:

- **زينة** بنت محظوظة، ستعمل مع عائلة **السي حسن**، ستسافر معها من **تافراوت** إلى تلك المدينة الكبيرة : **الدار البيضاء**.

لعله حينـــــــــــذاك الفولكلوري الذي بدأوا يضفونه على قرى **أملن** البئيســة. وإلا، ما كــانت الهجــرة لتتــوالى المدن. بدا له أن هناك عـدم التـوازن، وأن البادية أخـــذت تشـــكل عالة على المـــدن، نفسها، طالما عجزت عن أن تتمتع بالاكتفاء الذاتي، كما كانت قبل. أطفــال في سن يهاجرون القرى، إما نحو دراسة متقطعة، وإما يشتغلون غلمان بقالات. **أحواش** في كل مكـان، وفي كل مناسـبة. وبـدون ذلـك، (سـحابة صـيف تقشّع) : " كلام الضيف، بحال شتا في الصيف".

ألم تخبرك **تعزة** أن الأشـجار تـورق مرات على أكـثر تقـدير، في ثلاث سـنوات؟

أختك ترهن حريتها، بعد أن أفسد **العآمت** عقلها، فحضرت في **أحواش** رسمي، لأنك أنت السبب، تتهـــرب من العمـــل، تحلم بمجد لا **يوتوبيا**، في مدينة فاضلة ! تلك كانت الزيــارات الرسمية...

سواك أنت سبب هذا البلاء !

... ثم وأنت تصـير ذلك المحـامي النـاجح، المشــار إليه بالبنــان، فــإذا بقائل يقــول في ســـمعتك: " أخت الأســـتاذ **عبد المالك**، لدى عائلة **السي حسن** ! ... ثم وأختك تساق خادمة إلى مصير مجهول، تتقاذف بها أيد قاســية، تزجرها فــــتزدجر، تـــــدوس كبرياءها دلال !

أنت يغيظك أن تســــــــتعي المجوهرات، أيام المناسبات. كيف بك غــداً، يرمى إليها بثوب، أقرب إلى البلى منه إلى الجدة ؟

قفي يا **زينة** قبالة البــاب، أرهفي الســمع إلى أن يدخل الولد سيارته، اذهبي إلى البقال، ثم والبقــال يختلس منها قبلاً، بعد أن يملأ مســمعيها غزلاً وثناء (من هذه الخادمة السوسية يا **محماد** ؟)

إنها ابنة **السي فـاتح**، أخوها محـام. أنت وأختك وأبـوك إذن، في مجتمع يكـرس العبوديـة،

سواء في **تافراوت** أو في **الدار البيضاء**. حقا أنت لا تهمك النعـرات القبليـة، ولكنك لأول تحس، وبمنطق تام، بنوع من التمرد يشتعل بــداخلك، يمنح لقــرارك الحاسم قيمته ومغــزاه. حقــاً إنك لست في مواجهة منــاحرات شخصــية، قــــدر ما تبحث عن مخـــرج حقيقي، إنسانية مطلقة. إنك في عراك، مع واقع يتحــداك بذكائه ومكره.

أهل بلدتك كأهل **إسبارطة** تقريبــاً، **كالسي حسن**، إلا من رحم ربك. محظوظة أنت حقا يا **زينة** !

التفت إلى والدته، فقال دون اكتراث :

- أخــتي **تائهة** الآن في **أنــامر**، وقد أكثر في **البيضاء**.

- ستزورها نهاية كل أسبوع. تقول والدته.

وجاء قراره الحاسم :

- أختي لن تكون خادمة ما حييت.

حاولت **ماماس** تلطيف الموقف :

- في الحقيقــة، ســتقيم مع عائلة **حسن**، ولهم بنات كالبدور !

انفجر :

- هذا رأي نسائي.

في هذه القرية، نساء متأخرات أكثر من رجالهن. لا يرى في الحقيقة بـوادر التقـدم إلا وجه **تعزة**؛ كان يتخيلها من غير هذا العالم.

عاد في إصرار وعناد :

- لن تذهب أختي إلى **البيضاء**.

التصــقت **زينة** بعمــاد الســطح العلــوي واجمة لا تنبس ببنت شفة.

بعد قليل أفهمته أمه :

- إذن، فلن تصير محامياً.

كأنما تريد أن تنبهه للمـــرة الأخـــيرة الوضعية التي آلت إليها الأسرة، حينما أوضحت :

- أبــوك ليست له تجــارة لتمويلــك. قد أفلس تماماً !

(حريتك من أجل الكرامــة، أو كرامتك أجل الحريـة ! ولا إحسـاس بالأسـتار الـتي تخفي جمال **تعزة**).

ظل في إصراره متشبثاً برأيه :

- سأتولى الأمر بنفسي

حذرته **مامـــاس**، إشـــفاقاً عليه الأسرة :

- عائلة كبـيرة، ورزق كـريم، أبعد **الله** عيون الحاسدين !

احتد :

- ماذا تعنين ؟

- **السي حسن**، شخص لا يستهان به.
أخشى أن تفوت الفرصة على زينة.

خرجت زينة من صمتها:

- فرصة ماذا يا أماه ؟

انفجرت الأم :

- أنت لا تملكين دملجــاً كــاملاً؛ فالســوار المتحلق حول معصمك، دائـرة معدنية غـير كاملة المحيط، إن لك علي حقاً.

انبرى يتساءل :

- وكرامة ابنك ؟

هنا، جرت السـيدة **مامـاس**، نحو الخزانة تفتحهــا. بعد قليــل، عــادت تــردد في ساذج،مشوب بالحذر والخوف:

- هـذا مبلغ خمسـين ألف فرنـك، منحه **السي حسن**، هو يعينك على الســـفر دراستك.

نظر إلى أخته، ثم إلى نفسه، وإلى والدته، فتســـلمه منها بعد تــــردد؛ وقد تأكد التي تم بها تسفير أخته.

- أهذا كل ما أعطى ؟

أكدت **ماماس** :

- أجل، خمسون ألف فرنك، يا بني !

رمق أخته الواجمة بطرفه ثم مضى، ومعه المبلغ.

الحرية من أجل الكرامة، أو الكرامة من أجل الحرية... ! لا...

لم يذكر التاريخ أن فردا عاش كريماً بدون حرية، أو عاش حراً بدون كرامة. ومع ذلك، فأنت مقبل على سابقة خطيرة : تباع كرامة بمحضرك من أجل أن تصبح محامياً، تكون مرموقاً !

وعي، وتمرد كاذب، نقيض العاطفي. لقد استنفدت كل شيء. وها قد دورك، إزاء غرابة تتوالى بلا انقطاع. حرية الآخرين، قد لا تهمك. عليك أن تختار حريتك حرية أختك ووالدك. هناك كثير من والانحلال : أنتم شيء واحد !

غدا، تقف أمام المحاكم تلوك وفصولاً من القانون:" أجل سيدي الرئيس، إني أطالب بتعويض عن شرف موكلي المهان كرامته، فهناك مبدأ الكرامة الذي وضعت على أسسه قوانين لحمايته من كل إهانة تسرد الفصول المتعلقة بالموضوع... ألا تباً لك !

حقاً، في جميع الأحوال، إنك لا تتبنى حرية ميتافيزيقية. أترضى بأن ترهن حرية وكرامتها ثمناً لرداء المحاماة ؟

أترك ذلك الشيء لأهله. أطلب عملاً غير الدراسة الجامعية : كن رجلاً نموذجياً عادياً !

هكذا أصبح مفهوم الحرية والإنسانية المطلقة، ينفلت بين أصابعه. لم يعد يتحكم فيه. عليه فقط أن يعمل، ويفكر، ويقرر. تلك الحرية التي يفهمها نسبياً.

لمعت إشراقة غير كاذبة في خاطره؛ وهو يسير قدماً نحو المسجد للصلاة !

منذ أمد بعيد؛ وهو يبحث **تادينارت**، وفي **أحواش**. لم يجن والغيرة القاتلة. وفي بيت **سيدي الفاهم**، يحس إلا بالضياع. وعند **قاسم بن عدي** بوناً شاسعاً، وارتفاعاً كارتفاع ما بينه وبين قمم **الكست**.

تيه على تيه !

بساعديه يستطيع أن يتخلص من فقره وعوزه. لا عار في ذلك !

بل خير له أن يتمسك بأهداب عمل جدي، من أن يلجأ إلى ظلال حياة مائعة، كتلك يمهد لها **قاسم بن عدي** عليه " مشروع الحوامض والبواكير"، أو كالمبلغ الذي قدمه **السي حسن**، تمهيداً لإذاية شرف رفيع.

استبد به الشوق إلى **تعزة**، ليبوح بفيض مشاعره. تلألأت تلك المشاعر إشراقاً يسطع في كيانه، يغمر وجوده. خلع حذاءه

نحو القبلة يقيم الصلاة. كان المسجد غاصاً بالمؤمنين.

23

مضت ثلاثة أيام، لم يحضر **السي حسن** بعد، خلافاً للموعد الذي ضربه مع **السي** لا في اليـوم الأول، ولا في اليـوم الثـاني، الثالث.

أوجست السيدة **ماماس** أذنيهـا، حـتى يمر صـاحب دراجـة، لظنته **السي حسن** قادمـاً بســيارته. ثم تـــأتي النتيجة : "أوف ! هــو ! فما من حــديث، إلا وكــان **السي** المنتظر، محوره. فالرجل صاحب السيارة، الـذي كان يحادث أحد الأوروبـيين أثنـاء زيـارتهم لـوادي أملن، مع الســفير، كــان يشــبه **السي حسن** وأبناء التاجر الفلاني، يشبهون في ملامحهم، أبناء **السي حسن**، فكـان بشـيراً منتظـراً بالنســبة

للسيدة **ماماس**، ورسولاً مرتقباً لينتزعها من أنياب فقر، إلى حياة ملأى ترفاً وازدهاراً.

تضـــايق **عبد المالك** من خرافة رجل واحد ثري في نظر الناس في القرية، عادي في نظـــره هـــو. ما زالت العلاقة الاقتصار على سيد ومسود.

ما زال الآلهة الجـــــدد في يبحثون عن عقاب أبناء **سيزيف**، ليشـفوا غليلهم من العصاة الذين ركبوا أهواءهم. هؤلاء الأشقياء، ما اتعظوا. ما زالت إرادتهم ملتصقة بالصخور، أو الصخور هي التي التصقت بها.

ومع ذلـــك، كـــانوا يتعـــذبون في يصعدون ويهبطون، دونما هدف. وكانت النساء يحملن رزمــاً من حطب كـرّوش، يتجنبن حــراس الغابة بين الصــخور العاليــة، حيث يتعــذر الصعود. ما زالـوا ينتظـرون النسـاء في السـفح، للتعــرف على هــويتهن، قصد تحرير العقوبـــات. مجرد لعبة تعمية !

إنهم مواطنــون، فكــانت لهم هــذه الأرض من قرون وقرون !

ولكن الخرائط تقول إنها" أرض محصـورة حبيسة ".

لم تكن خرائط **الحضيكي** تقول ذلك، ولم تشر إليه مخطوطـــات العلمـــاء، الملفوفة في القصب.

يا **ويــــرزان**، انبعث من ترابــــك، حلّوفهم" الذي يرعى قي " الوصايا" في أمان.

يا **ويــرزان**، اســألهم عن عــدد الســياح والسائحات الذين اصطادوا " حلوفهم".

انعطف يا **ويــرزان** في منحــدر، وانطلق نحو البركــة، اســترق الســمع لتســابيح الضـفادع، تمتع بالماء، ينساب شلالاً مسترسلاً صباح مساء.

لا تخف !

كــانت هــذه الخــواطر تداعبه على البركة التي سرعان ما تنداح تسـاقطات الشـلال وسطها.

بغتـــة، ســـمع أصـــواتاً قادمة من الســـيارات، هب واقفـــاً. فجـــأة ظهر **ســـيدي الفاهم**، يجري و**أبا الحبيب** في أثره، وآخــرون وراءهما.

هرول نحوه مولولاً:" وارأساه !" سأله : " ماذا **سيدي الفاهم**؟".

لم يحفل بــالرد عليــه، بل ارتمى بثيابه الحوض، رأساً إلى القعر.

تجمهر أصحابه أمام البركة، تساءلوا عمن له دراية بالســــباحة. لا أحد بــــالطبع. تبع

الحبيب محاولاً أن يسبح، لكنه غاب، نزل إلى قعر البركة. وتغمغم الغريقان ...

كثرت التعاليق، فقيل : إن **أبا الحبيب** سبح ليصحو من سكره.

لم ينتظر **عبد المالك**، فارتمى في حركة رياضية سابحاً، متقلباً بذراعه ذات اليمين، وذات الشمال.

وفي خفة سباح ماهر، انتشل **سيدي الفاهم**، خرج به إلى البر، ثم كالسهم باحثاً عن **أبا الحبيب**.

سمع القرويون الضجة، فاستيقظ بعضهم، وقد ظنوا عودة **بورون**.

وفي **ساحة الحوض**، لم يشاهدوا **عبد المالك**، وهو ينتشل **أبا الحبيب**.

سُمِعت التساؤلات : " ماذا حدث ؟ سقط من السكر"؛ " بل سقط يتبع **سيدي الفاهم**".

- السكوت من فضلكم. قال **المالك**؛ وهو ما فتئ يقوم بعملية إفراغ الماء من معدة **سيدي الفاهم**، بمساعدة أحد القرية.

وأخيراً، حرك **سيدي الفاهم** جفنيه. كان شعره في لون الفحم، وطلاء أسود ينحدر على جبهته. ثم قام بنفس

الحبيب حيث استغرق بضع ثوان؛ فما لبث **الحبيب** أن تقيأ مياهاً وشرع المنتظم. قال **عبد المالك** بصوت مسموع :

- ما هذا ؟

- رد عم **بوهو** :

- صبغ **سيدي الفاهم** شعره الأبيض شيباً بمسحوق صيدلي أساء استعماله، لم الكيفية المستعمل بها : رمى بالأقراص التي يجب أن يتناولها في القمامة، وضرب صفحاً عن زجاجات الشرب، ففعل مثله **أبا الحبيب**.

حينئذ، علم **عبد المالك** أنهما يشتكيان من حريق في رأسيهما، إثر إحساسهما المضاعفات. وسأله **عبد المالك** ثانية :

- ما الداعي يا **سيدي الفاهم** إلى تبديل لون الشعر؟

أجاب **أبا الحبيب** في تهكم بالغ :

- أما سمعت أن **سيدي الفاهم** ضرب بهراوة من أجل شعيرات بيض ظهرن رأسه لما كان يتغزل بفتيات من **أفلا-واسيف** ؟

انبرى **سيدي الفاهم** محتجاً :

- اخرس، بل ضُرِبْت من أجل أفكاري الصحافية.

ضج الرفاق بالضحك، ثم انصرفوا، وكلهم إلى حال سبيله.

24

استيقظ، نظر إلى ساعته : الثامنة ! انتفض واقفاً. وفي سرعة ارتدى ملابسه، وهبط الدرج :

- صباح الخير أماه !حياها وهي "الأسطوان" [13].

- صباح الخير يا ولدي.

ثم تبعه صوت رقيق، انبعث من بين أركان المطبخ:

- صباح الخير ؟

رفع إليها طرفه، رد في تباطؤ :

- صباح الخير !

براثن عقاب وحشي تقبض على أعصابه، جاثمٍ على صدره كالضاغوط، رغم الضحَكي الذي تبادله مع القرويين بعد الغريقين : مسكينان ! لم يجدا حلا لمشاكلهما إلا الغرق !

---

[13] **- الأسطوان : جزء من الطابق الأول في البنايات السوسية، يشمل المطبخ في وسطه، وغرفا للمؤونة والحطب، أو للطاحونة الحجرية، بسقف فيه ومدخنة تدعى " انزلا" فوق السطيح الذي هو جزء من الأسطوان.**

لمعت في خاطره بسمة، سرعان ما خبا ضوؤها، كشمس الشتاء، تظهر مرة بين السحب، ثم تختفي فجأة !

قـــدمت له **زينة** الفطـــور، وعـــاد الوحشي بكل أثقاله إلى صدره، يحكم فيه مخالبـه، أكـثر من ذي قبـل. ثم قـال؛ وقد ببصره في أرجاء المطبخ البربري :

- أما زلت مصرة على السفر ؟

- أجل. تقول **زينة**.

لاحظت البرود على وجهه، ثم قـالت تود شحن طاقته :

- ستكون قريباً مني.

تنـاول فطـوره بالسـرعة الـتي ارتـدى ملابسه. صعدت والدته إلى السطح، في ارتقــاب **السي حسن**، ثم تبعتها **زينة**.

أما هـــو، فقد اســـتدار، يهبط الـــدرج، الطريق العمومي.

وفي اتجاه الواحـة، صـادف أحد الفلاحين. صافحه، ثم رأى والده مع جماعة يـثرثرون، فاتجه نحو البركـة. وثب إلى خـاطره حـادث الغـريقين مـــرة أخـــرى، تمتمت شـــفتاه : " جمالك الشاعري لا يحل مشـاكلي كلهـا". إلا أنه قـرر

يمكث على حافتها عند مصب الشلال، ليرى **تعزة**.

رغبة جامحة تستبد به ليفرغ أسـراره في مسمعيها.

إذا بقي طـويلا سيسـتنفد هـذا القروي المحيط به بمن فيه **تعزة**، وجمال هذه البركة ذاتهـا، ثم ربما يسـتنفد نفسه **سيدي الفاهم وأبا الحبيب**.

كـان لا يـزال جالسـاً على حافة الحـوض، يولي ظهره للنساء. بعد دقائق، لاحت له، منسابة من أحد الزقـاق، في انحـدار نحو كالغصن، كالنسيم، كشجرة الصنوبر ! هاهنا كـان ينتظرها حـتى تمر لملء جرتها النحاسـية الشلال القراح.

التقت نظراتهمـا، ابتسـمت شـفاههما ابتسـامات متبادلـة: كلاهما يفيض شـوقاً صاحبه.

أحس بأناملها تشد على يـده. وفي صـوت موح بكثير من السمو والاعتزاز، سمعها تقول :

- انتظرتك ثلاثة أيام. لم أعد أطيق الحيـاة بدونك ! ألا ترى أن كلينا يكمل الجانب الآخر ؟

في هـذه التكملة أيضا اسـتنفاد، انحلال، إفـراط في إزهـاق للمسـتقبل. وضـعت جرتها تحت الشـلال. وفي خفة ودلال

حملتها على عاتقها، ثم خلصت إليه. أخبرها؛ وهما ينعطفان أمام شجرة سماق مكثفة العرائش :

- الواقع أنني أواجه صراعاً ضد تحاول تخديش كرامتي.

اضطرب روعها؛ وفي ترقب واستطلاع :

- ألذلك علاقة بسابقة **بورون** ؟

حرك رأسه نفياً :

- **زينة** تواجه وضعاً غير مألوف.

- كالوضع الذي كنت أواجهه قبل أيام ؟

سكتت هنيهة، ثم استأنفت :

- لا يهم، الخاتم أرجعوه لي والبندقية.

وكأنه تجاهل قولها. أردف :

- لا خطوبة هناك على الإطلاق **لزينة**، بل ستصير خادمة لعائلة من **تافراوت**.

- ما الداعي إلى ذلك ؟ اندهاش.

ذلك هو ما يحاول أن يبوح لها به.تمتم :

- سوء أحوال الوالد المالية.

انتفض؛ وقد لمح والده يحادث **حسن**، الذي لم يكلف نفسه حتى عناء النزول من سيارته.

- إنه هو ! أتى أخيراً ليأخذها. يقول **لتعزة**.

انطلق يـركض نحو السـيارة في تلهـف، سمعها تقول وراءه :

- كن عاقلا !

اقـترب من السـيارة... حـتى ظل واقفـاً على بعد ذراع منها.

قال والده يحادث صاحب السيارة :

- هـذا هو ابـني **عبد المالك**، يكون محامياً بعد ثلاث سنوات.

تكلم الرجل دون أن يحفل **بعبد المالك** :

- ولى زمن التعليم ! إنهم الآن ليعيشوا ...

لتكن القطيعة التامة بينه وبين هذا الصنف من البشر ! لا تفاهم، ولا تقـارب. أليس في المقدمة خير دليل ؟ إنه لا يلقي كلامه جزافاً؛ بل دلته تجاربه على أن طائفة من الناس لا يستندون في أحكامهم إلا إلى أنانية عمياء.

سأله **عبد المالك** :

- هل يعـني ذلك مراجعة منـاهج التعليم تفاهته ؟

ودون أن يرفع عينيه إلى سائله، قال برزانة يحسد عليها؛ وإن كانت كاذبة :

- اطلبوا العلم ما شئتم، فلا بد من الرجوع إلى ما كــان عليه آبــاؤكم، وإخــوانكم، التجارة.

برم **عبد المالك** شفتيه، ثم سمعه يضيف :

- أحــرى بنا وأولى- نحن التفراوتــيين- أن نهتم بتجارتنا !

وأخـــــيراً، هبطت **زينة** منحــــــدراً والـدتها. وكـانت **تعـزة** مـازالت واقفة عن كثب، تتأمل **عبد المالك** يحــــادث **السي** رأت هذا الأخير، يقوم بفتح باب السيارة :

- هــذا الرجل مثل أبيــك، وامرأته كأمــك، كوني طوع أمرهما. يقـول **السي فـاتح** ناصـحاً **زينة**.

تــرددت، قلبت بصــرها بين والــدتها أجهشت بالبكاء، حتى صار نحيباً، وبين أخيها الذي ركز بصره على صاحب السيارة.

تقدمت نحو أمها، عانقتها عناقاً حاراً.

تـــأثر الأب بهــذا الموقـــف؛ وقد المناقشة الحامية مما دار بين ابنه وبين الوجيه

السي حسن، ثم رجعت **زينة** إلى والدها بدوره، تقبل راحته. كانت الدموع لا تزال منهمرة من مآقيها.

وبعد أن استرد الأب راحته، ارتمت **عبد المالك** تلتصق به معانقة إياه معانقة أخوية، انضمت إليهما **تعزة** بعد أن أسندت النحاسية إلى حقل مرصوص بالحجارة. غدا الموقف جليلاً !

تحلق حول السيارة بعض القرويين، يصافحون **السي حسن**. وفي أثناء ذلك، التقت العيون، رأى في عيني أخته استعطافاً وخوفاً من مصير مجهول.

لن يتركها تضل؛ وقد كاد يضل هو نفسه، بين **الأنامريين**.

وأمام الملأ، تقدم نحو الرجل المتعجرف قائلاً في لهجة حازمة :

- (ليقم صاحب الحاجة إلى حاجته) !

رفع **السي حسن** لأول مرة عينيه قال في استنكار، كأنه يخاطب صبياً دارجاً.

- كيف ؟

- أختي لن تسافر معك، وإليك المبلغ.

عد له خمسين ألف فرنك، هي تماماً سلمتها إليه والدته.

بُهت الرجل كأنه لا يصدق. وبعد أخذ ورد، لم يسعه إلا أن يتقبل المبلغ المعاد إليه، كما سلمه **للسي فاتح**.

أشعل محرك السيارة، ثم أطلق العنان منحدرة يميناً عند منعطف **أنيل**.

تشبثت **زينة** بأخيها، وانضمت **تعزة**؛ وقد علا الجوَّ سحابة من الغبار خلفته سيارة **السي حسن**.

قال والده :

- تعالوا جميعا نتسول.

ترك أخته، نحى **تعزة** برفق، ثم اندفع إلى الأمام، رامياً خطواته في انفعال. اندهشت **تعزة** :

- إلى أين ؟

ودون أن يلتفت إليها؛ قال :

- قد غيرت طريقي، إلى العمل في مكتب للطيران.

- متى تعود ؟ قالت **تعزة** في صبر نافد :

- قبل أن تورق الأشجار مرة واحدة.

انتهت

محمد الاحسايني

الدار البيضاء يبراير 1974

ظهر غلاف الكتاب

" نقطة الارتكاز في رواية **المغتربون**، هي الصراع الإثباتي في الوجود المتذبذب بين قطبين أساسيين، هما طرح الذات عند الشخص الرئيسي في الرواية، **المالك** كوجود متنامٍ، داخل مقدرات شخصية، وما يصطدم به هذا التنامي من معوقات تنجح في الأخير، في الاتجاه المستقبلي **لعبد المالك**، تحت الضغوط الطبقية، بكل نتائج هذا التحويل السلوكية والعلائقية.

وقد استطاع كاتبها **محمد الاحسايني**، أن واقع قرية بربرية معزولة والفكرية... كما استطاع أن يجعل من الرواية خطوة جديدة في النص الروائي المغربي، عن طريق اختياره لهذا البربري الجذاب المتميز، بعيداً عن الساحة الفولكلورية، وانطلاقاً من فهم خاص لمشاكل المنطقة المترتبة **الاغتراب**، كبعد واقعي، وفكري، وشعوري، وما ينتج من أثقال القهر والعذاب، مزاوجاً بين هذا المضمون المتميز، وبين جمال جبل **الكست**..."

دراسة نقدية : مجتمع مدني من خلال بيئة قروية- الأستاذ **محمد عز الدين التازي** : جريدة **المحرر** 5/1/12/1974.

" **الفن في المغتربون** : 1- من أهم ما يتميز به أسلوب القاص، المقارنة. فهو غالباً يشرح حالاً بحال، ويقارن وضعاً بوضع. تستهدف المقارنة أغراضاً كثيرة، أهمها الانتقاد. 2- يعمد القاص إلى الوصف النفسي لأبطاله، والوصف لما تقع عليه عيون الأبطال من مظاهر الجمال في القرية... 3- تبدو لغة القاص متماسكة وقوية غالباً، وتتراوح

بين مستويات تعبيرية متعددة الدلالات، فقد تبدو أحياناً لغة إيحاء خصـبة. 4- يسـتغرق الوصف من القـاص أغلب أجـزاء روايته. والوصف مبرر تماماً لأن القاص يريد أن يطلعنا على وسط قلما اطلعنا عليه من خلال كتاب القصة في المغـرب. وهـذا أيضـاً جـانب التوفيق في منجـزات الأديب الفنيـة. يخلط الكـــاتب بين طريقـــتين من طـــرق رصد والـــذكريات، تتشـــكلان معـــاً في عنصر واحـــد، التداخل بين طريقة الاسـترجاع وبين كتابة التقريـر. 6 القـــاص إلى التحليل النفسي ليعمق اطلاعنا على الأبطال".

المغتربون والأبعاد الأولية لمفهوم الغربة :**أحمد الحلـــو/ أقلام** (المغربيــــة)/عــــدد 3/ أبريل 1978 .70/71